أجمع الآيات القرآنية-عرضًا ودراسةً

د. عبد اللطيف بن عبدالله الجطيلي
قسم القرآن وعلومه – كلية الشريعة
جامعة القصيم

أجمع الآيات القرآنية - عرضًا ودراسةً

د. عبد اللطيف بن عبدالله الجطيلي

قسم القرآن وعلومه – كلية الشريعة
جامعة القصيم

تاريخ تقديم البحث: ٦/ ٤/ ١٤٤٤ هـ تاريخ قبول البحث: ٢٤/ ٦/ ١٤٤٤ هـ

ملخص الدراسة:

تقوم مادة هذا البحث على استقراء ما وصفه المفسرون في تفاسيرهم من الآيات القرآنية بأنها أجمع آية قرآنية في باب معين أو موضوع معين, ومن ثم جمعها ودراستها بدراسة معناها الإجمالي, واستظهار المعاني التي تجمعها الآية والتي من خلالها وصفت بكونها أجمع آية, والكشف عن وجه العلاقة والارتباط بين هذه المعاني ومقصد السورة, وكل هذا محاولة للاستفادة من هذه الخلاصات التي انتهى إليها المفسرون بعد تدبرهم لكلام الله تعالى, وتأملهم في معاني هذه الآيات الموصوفة, فهذه الأوصاف حرية بالدراسة والجمع, فلها مزية ومكانة يستفيد منها المسلم, وقد خرجت الدراسة بنتائج؛ منها:

-أن المفسرين لهم عناية متقدمة باستخلاص مثل هذه الأوصاف وفي مقدمتهم ابن مسعود رضي الله عنه, وانتهاء بالمعاصرين حيث كانت لهم عناية ظاهرة.

-وقفت على أحد عشر موضعاً من الآيات وصفت بأنها أجمع الآيات في أبواب مختلفة.

وأوصت الدراسة: بالعناية بمثل هذه الخلاصات والنتائج والأوصاف من المفسرين والتي تنبع من دقة الفهم وحسن التدبر والتأمل في آيات الله, وذلك مثل الأوصاف؛ أخوف آية وأرجى آية, وغيرها.

الكلمات المفتاحية: أجمع-الآيات-آية-في القرآن.

The most comprehensive verses – viewing and studying

Dr. Abdullatif Bin Abdullah Aljeteeli
Department of Quran and its Sciences, College of Sharia
Qassim University.

Abstract:

In this research, the material is based on the extrapolation of what the interpreters described in their interpretations of the Qur'anic verses as the most comprehensive Qur'anic verse in a specific chapter or a specific topic, and then collecting and studying it by studying its overall meaning and memorizing the meanings that the verse collect through which it was described as being the most comprehensive verse and revealing the relationship and the connection between these meanings and the purpose of the surah. All of this is an attempt to benefit from these conclusions that the interpreters have reached after reflecting on the words of God Almighty and meditating on the meanings of these described verses. These descriptions are free to study and collect, and they have an advantage and a place that Muslims can benefit from. The study came out with the results; of which:

- The interpreters have advanced care in extracting such descriptions; foremost among them was Ibn Masoud, may God bless him, and finally to the contemporaries, where they had apparent care.
- I reached eleven places of the verses, which were described as the most comprehensive verses in different chapters.

The study recommended: Paying attention to such summaries, results, and descriptions from the interpreters, which stem from accurate understanding, good contemplation, and contemplation of the verses of God, such as descriptions, most fearing verse and most hopeful verse, and others.

key words: most comprehensive - verses - verse - in the Qur'an.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، أنزله هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فإن أعظم الاشتغال، وأولى ما تفنى فيه الأعمار، وتبذل له أعز الأوقات؛ العناية بكتاب الله تعالى تفهمًا وتدبرًا وعلمًا وعملًا؛ وذلك أنه كلام رب العالمين، وفيه الهدى وهو النور المبين، والجامع لخير الدنيا وصلاح أمر الدين، فلا أجمع من معانيه ولا أكمل ولا أفصح وأبلغ من ألفاظه ومبانيه.

وقد كان من شأني عند مطالعتي لبعض التفاسير أن استوقفتني عدة أوصاف لبعض المفسرين يصفون بها بعض الآيات القرآنية بأنها: أجمع آية في كتاب الله أو من أجمع الآيات، وأرجى آية وأخوف آية وغير ذلك..، فأحببت أن أجمع هذه الآيات التي وُصفت بأنها: أجمع آية في القرآن، وقد بلغت (١١) أحد عشر موضعاً من الآيات القرآنية- وأدرس دلالاتها والمعاني التي جمعتها وسبب وصفهم لها بهذا، بغية الانتفاع والاهتداء بهدي هذا الكتاب العزيز؛ وذلك لأن هذه الأوصاف الجليلة لهذه الآيات العظيمة لها قيمتها العلمية لصدورها من عالم بكتاب الله تستحق التوقف عندها والتأمل في معانيها ودلالاتها، فكان هذا البحث المعنون له بعنوان: **(أجمعُ الآياتِ القرآنية -عرضًا ودراسةً-)** الذي أسأل الله تعالى أن يجعله مباركًا وأن يرزقنا الإخلاص والقبول.

أهداف البحث:

١- العناية بكتاب الله من خلال جمع الآيات الجامعة للمعاني العظيمة وطلب الاهتداء بها.

٢- دراسة الآيات التي وصفها المفسرون بأنها أجمع الآيات والكشف عن أسباب وصفهم لها بهذا، والتأمل في مدى العلاقة بين الآيات الجامعة ومقاصد السور.

٣- الكشف عن المعاني التي جمعتها الآيات الجامعة وبيان وجوه الاهتداء بها.

الدراسات السابقة:

من خلال البحث لم أقف على دراسة جمعت الآيات التي وصفها المفسرون بأنها أجمع آية أو من أجمع الآيات ودرستها، وقد وقفت في أثناء البحث على هذه الدراسات:

- "الآيات القرآنية الجامعة في تزكية النفس والعلاقات الاجتماعية- دراسة موضوعية"، د. صالح علي إبراهيم راتب، رسالة دكتوراه، جامعة العلوم الإسلامية العالمية في الأردن.

وقد انتقى الباحث عددًا من الآيات القرآنية رأى أنها جامعة في موضوع تزكية النفوس والعلاقات الاجتماعية، مع العلم أنها لم تتفق في المواضع مع بحثي إلا في موضع واحد، وقد تناوله أيضًا من زاوية مختلفة، وقد جاء بحثي أيضًا مختصًّا بالآيات القرآنية التي وصفها المفسرون بأنها أجمع آية في شتى الأبواب ودراستها.

- "أجمع آية لمكارم الأخلاق في القرآن الكريم – المعاني والهدايات"، للدكتور: عبد الله بن عبدالرحمن الشثري، بحث منشور في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد ٣٥ رجب ١٤٢٢هـ.

وهذا البحث يتقاطع مع دراستي بدراسة آية واحدة من الآيات التي بحثتها وهي قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [سورة الأعراف:١٩٩].

- "رسالة في بيان أجمع آية في القرآن": للكاتب وديع عبدالفتاح القدومي، دار الوضاح، عمان–الأردن.

وقد تطرق فيه إلى تفسير وبيان معنى آية سورة النحل التي قال عنها ابن مسعود ﷺ بأنها أجمع آية في القرآن(١). دون غيرها من آيات هذا البحث.

حدود البحث:

البحث سيكون منصبًّا على ما وصفه المفسرون في تفاسيرهم لبعض الآيات بأنها: "أجمع آية" بأفعل التفضيل، أو "من أجمع الآيات"، ودراستها، وقد وقفت على أحد عشر موضعاً من الآيات القرآنية وصفت بذلك.

منهج البحث:

يقوم البحث على المنهج الاستقرائي لكتب التفسير، والتحليلي للآيات الموصوفة بأنها أجمع آية في القرآن أو من أجمع الآيات القرآنية.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. كتاب التفسير-سورة النحل ح(٣٣٥٨)، (٣٨٨/٢). وأخرجه ابن جرير في تفسيره(٢٨٠/١٧)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد بلفظ: "ما في القرآن آية أجمع لحلال وحرام وأمر ونهي، من هذه الآية..". ح(٤٨٩)، ص(١٧١). قال ابن حجر في الفتح: "وسنده صحيح". (٤٧٩/١٠). وحسن إسناده الألباني في صحيح الأدب المفرد ص(١٨٢).

إجراءات البحث:

١- استقراء الآيات القرآنية التي وصفها المفسرون بأنها أجمع آية في القرآن.

٢- جمع الآيات القرآنية الجامعة وترتيبها موضوعيًّا وقد وضعت لكل موضوع عنوانًا مناسبًا.

٣- بيان المعنى الإجمالي للآية وبعض علومها كالمكي والمدني وسبب النزول.

٤- الكشف عن المعاني والموضوعات التي جمعتها الآية وتسببت بوصفها بأنها أجمع آية، وذكر من وصفها بذلك من المفسرين.

٥- إيضاح وجه ارتباط المعاني التي جمعتها الآية بمقصد السورة.

٦- الالتزام بالمنهج البحثي المعتمد، واعتماد المصادر الأصيلة.

٧- عزو الآيات القرآنية وتخريج الأحاديث النبوية من المصادر المعتمدة والحكم عليها، وبيان ما يحتاج إلى بيان وإيضاح.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة.

المقدمة: وتشتمل على: أهداف البحث، والدراسات السابقة، وحدود البحث، ومنهجه، وإجراءاته، وخطته.

الفصل الأول: الدراسة النظرية للآيات الموصوفة بأجمع آية، وفيه مبحثان.

المبحث الأول: بيان عناية المفسرين بتدبر آيات القرآن واستخلاص وصف لها.

المبحث الثاني: موضوعات الآيات الجامعة ومواصفاتها.

الفصل الثاني: الدراسة التطبيقية، ويشتمل على أحد عشر مبحثًا.

المبحث الأول: أجمع آية في تقرير توحيد الربوبية والألوهية، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآية

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآية

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآية بمقصد السورة

المبحث الثاني: أجمع آية في الخير والشر، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآية

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآية

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآية بمقصد السورة

المبحث الثالث: أجمع آية في الحث على الخير والتحذير من الشر، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآية

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآية

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآية بمقصد السورة

المبحث الرابع: أجمع آية في الترغيب بالعمل الصالح، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآية

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآية

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآية بمقصد السورة

المبحث الخامس: أجمع آية في الحض على الإنفاق في وجوه الخير، وفيه

ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآية

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآية

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآية بمقصد السورة

المبحث السادس: أجمع آية في الدعوة إلى الله وهداية الناس إلى الحق، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآية

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآية

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآية بمقصد السورة

المبحث: السابع: أجمع آية لمكارم الأخلاق.

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآية

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآية

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآية بمقصد السورة

المبحث الثامن: أجمع آية للتكاليف الدينية، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآية

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآية

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآية بمقصد السورة

المبحث التاسع: أجمع الآيات التي بينت باطل المشركين، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآيات

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآيات

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآيات بمقصد السورة

المبحث العاشر: أجمع الآيات في بيان أحوال اليهود وصفاتهم، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآيات

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآيات

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآيات بمقصد السورة

المبحث الحادي عشر: من أجمع الآيات في أحكام الحج وآدابه، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآيات

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآيات

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآيات بمقصد السورة

الخاتمة وفيها أهم النتائج والتوصيات.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

الفصل الأول: الدراسة النظرية

المبحث الأول: بيان عناية المفسرين بتدبر آيات القرآن واستخلاص وصف لها.

عندما نتأمل في التفاسير من لدن سلفنا الصالح وحتى زماننا المعاصر يتجلى لنا مدى عناية المفسرين والعلماء بكلام الله تعالى وتدبره والتأمل في معانيه، وما ذاك إلا للمكانة الكبرى للقرآن الكريم إذ إنه المصدر الأول من مصادر التشريع والمنبع الأصيل للهداية والعلم بالله وبشرعه، ومن دلائل عناية العلماء من المفسرين بتدبر كتاب الله واستلهام هداياته واستنطاق آياته وتثوير مكنوناته = ما نحن بصدده من جمع للآيات القرآنية التي وصفوها بوصف مهم ينم عن تدبر عميق وفهم كبير لآيات الكتاب العزيز، وهذه العناية ممتدة من عهد السلف الكرام وحتى هذا الزمان المعاصر مما يشير إلى كبير الاهتمام ووافر العناية بهذا الكتاب العزيز وما هذا عليهم بغريب.

وفي هذا البحث يتبين لنا ملمح مهم من هذا التفكر من خلال بعض النماذج التي تدل على غيرها؛ فهذا ابن مسعود وقد اشتهر عنه كمال التوجه لكتاب الله تعالى يصف بعض الآيات بأنها أجمع آية وله نموذجان في هذا البحث، وكذا جعفر الصادق وله نموذج واحد، وأما محمد رشيد رضا فله نموذج واحد أيضًا، ومثله أبو زهرة، وكذا وهبة الزحيلي كلهم على نموذج واحد، وأما محمد سيد طنطاوي فله خمسة نماذج.

وهذا بدوره يعطي انطباعًا عن مدى عناية المفسر بالآيات القرآنية التي تتميز بنوع من أنواع التميز أو تتصف ببعض الأوصاف وإبراز هذه الصفات وتجليتها.

المبحث الثاني: موضوعات الآيات الجامعة ومواصفاتها

من خلال التأمل فيما ورد في هذا البحث من وصف لبعض الآيات بأنها أجمع آية يظهر لنا أن هذه الآيات تنوعت في الموضوعات التي جمعتها؛ وهي كالتالي:

- فقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [سورة يونس:٣]. جمعت أنواع التوحيد الثلاثة توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات وهي أصول الدين العظمى وقواعده الكبرى.
- وأما هذه الآية: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة النحل:٩٠]. فهي أجمع آية للخير والشر كما قال ابن مسعود ﷺ حيث تضمنت جوامع الكلام بإيجاز بليغ فأمر الله بثلاثة أوامر جمعت الخير كله، ونهى عن ثلاثة مناهٍ شملت الشر كله.
- وأما الآية الجامعة الفاذة في سورة الزلزلة وهي قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [سورة الزلزلة:٧-٨] ففيها البيان الواضح والتنصيص الصريح على ما سيكون عليه الحال يوم القيامة من الإحصاء والدقيق للأعمال خيرها وشرها حتى إن الإنسان ليرى مثاقيل الذر التي يحتقرها وسيجازى عليها كلها، وفي هذا

أعظم الحض على العمل الصالح وإن دق، والتحذير من السيئات وإن صغرت في عين صاحبها.

- وفي قول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة النحل:٩٧]. أوضح بيان في أجمع آية في الترغيب بالعمل الصالح للرجال والنساء على حد سواء بأبلغ خطاب وأوجز عبارة، وأجزل وعد.
- وأما قوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [سورة البقرة:٢٧٢]. ففيها الحض على الإنفاق والبذل في سبيل الله حيث جاء الحث والتأكيد في آية واحدة بعدد من الصياغات كما بيناه في المبحث السادس وما ذاك إلا للتأكيد على هذه العبادة العظيمة المتعدية.
- وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة آل عمران:٦٤]. فجمع أصول الدعوة إلى الله وأخلاقياتها ولا سيما مع أهل الكتاب وإن كان غيرهم يدخل معهم.

- وفي قوله الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [سورة الأعراف:١٩٩]. جمع لمكارم الأخلاق, وصالحها, مع الناس أجمعين ولا سيما المخالفين منهم كالمشركين.
- ومن خلال نظرك في قوله تعالى: ﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [سورة البقرة:١٧٧]. يتضح لك موضوعها وأنها أجمع آية في التكاليف الشرعية وأصول الاعتقاد والعبادات والأخلاق.
- وأما الآيات: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ١٥ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ١٩ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۡۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٢٠ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن

قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الزخرف:١٥-٢٥]. ففيها سرد لضلالات المشركين واعتقاداتهم ورد عليها وكشف لزيفها وخطئها فكانت أجمع آية في هذا الباب.

- وكذا الآيات في سورة النساء من قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [سورة النساء:١٥٣-١٦٢]. فقد اشتملت على بيان حال اليهود وصفاتهم مع الحق وأهله، ومع الأنبياء، وتعاملهم مع الناس عمومًا، حيث جلت حقيقتهم وأظهرت فسادهم فكانت بحق أجمع آيات في ذلك حيث تضمنت الإشارة إلى أشهر صفاتهم وأبرز مخازيهم في جملة يسيرة من الآيات.

- وأخيرًا فإن أجمع آية في أحكام الحج هي قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [سورة البقرة:١٩٦]. حيث تضمنت جملة من أحكام المناسك البدنية في آية واحدة بما لا يوجد في آية غيرها.

الفصل الثاني: الدراسة التطبيقية

المبحث الأول: أجمع آية في تقرير توحيد الربوبية والألوهية

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [سورة يونس:٣].

قال محمد رشيد رضا: " **أَجْمَعُ الْآيَاتِ فِي هَذَا التَّوْحِيدِ –توحيد الربوبية والألوهية– الْآيَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ**، التي خاطبت الناس بأن ربهم هو الذي خلق السماوات والأرض أطوارًا ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أي: أزمنة، تم فيها خلقها وتكوينها فكانت ملكاً عظيمًا، ثم استوى على عرش هذا الملك الاستواء اللائق به، الدال على علوّه المطلق على جميع خلقه، وإحاطته به بعلمه وقدرته، وتدبير الأمر فيه بمشيئته وحكمته ورحمته، بغير حد[1] ولا تشبيه، ولا شريك له في الخلق والتقدير، ولا في التصرف والتدبير، ما من شفيع عنده إلا من بعد إذنه، فله وحده الأمر، وبيده النفع والضر.

بعد تقرير هذه الحقيقة في توحيد الربوبية قال تعالى محتجًّا بها على توحيد الألوهية: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: فاعبدوه وحده، ولا تعبدوا

---

(١) الصواب عدم إطلاق نفي الحد عن الله تعالى بل لله تعالى حد لكن لا يعلمه غيره. قال أبو سعيد الدارمي في نقضه على المريسي(٢٢٤/١): "والله تعالى له حد لا يعلمه أحد غيره ولا يجوز لأحد أن يتوهم لحده غاية في نفسه، لكن يؤمن بالحد ويكل علمه". انتهى

معه غيره بطلب شفاعة ولا دعاء"[1].

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآية:

يقول تعالى ذكره: إن ربكم الذي له عبادة كل شيء، ولا تنبغي العبادة إلا له، هو الذي خلق السموات السبع والأرضين السبع في مقدار ستة أيام[2]، وهي يوم الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم عليه السلام، وانفرد بخلقها بغير شريك ولا ظهير، ثم استوى على عرشه الذي هو أعظم المخلوقات وسقفها بمعنى علا واستقر استواء يليق بجلاله مدبرًا للأمور، وقاضيًا في خلقه ما أحب، لا يضاده في قضائه أحد، ولا يتعقب تدبيره متعقب، ولا يدخل أموره خلل.

﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ لا يشفع عنده شافع يوم القيامة في أحد، إلا من بعد أن يأذن في الشفاعة ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾، يقول جل ثناؤه: هذا الذي هذه صفته، سيدكم ومولاكم، لا من لا يسمع ولا يبصر ولا يدبر ولا يقضي من الآلهة والأوثان ﴿ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ يقول: فاعبدوا ربكم الذي

---

(١) تفسير المنار(٣٩٥/٨).

(٢) واختلفوا في هذه الأيام: هل هي كأيام الآخرة كل يوم كألف سنة، كما نص على ذلك ابن عباس ومجاهد. أم أنها كأيام الدنيا كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ وهذا القول نسبه للأكثر واختاره كل من: ابن عطية، وابن كثير، واستظهره الزمخشري، وابن عثيمين؛ لأن الله تعالى أخبرنا بما نعهده من الأيام، ولأن هذا أظهر في بيان القدرة الباهرة بخلق هذه الأجرام العظيمة في مثل تلك المدة اليسيرة. ينظر: المحرر الوجيز (١٥٢/٣)، والكشاف(٢٨٨/٣)، والبداية والنهاية(١٦/١)، وتفسير ابن عثيمين: الحجرات – الحديد ص(٣٦٤) وغيرها. وقد أخرج ابن جرير أثر ابن عباس من طريق عكرمة عنه في تاريخ الرسل والملوك (٥٨/١)، وأخرجه عن مجاهد في تفسيره رقم(١٤٧٧٣)، (٤٨٢/١٢). وهو الذي رجحه ابن جرير وقال عنه: "ذلك ما لا نعلم قائلًا من أئمة الدين قال خلافه". تاريخ الرسل والملوك(٥٨/١).

هذه صفته، وأخلصوا له العبادة، وأفردوا له الألوهية والربوبية، بالذلة منكم له، دون أوثانكم وسائر ما تشركون معه في العبادة.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ يقول: أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الآيات والحجج، فتنيبون إلى الإذعان بتوحيد ربكم وإفراده بالعبادة، وتخلعون الأنداد وتبرؤون منها؟[1].

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآيات

فهذه الآية الكريمة الجامعة تضمنت معاني جليلة تصب في حقيقة الدين وأصله وتبين بجلاء ما دعت إليه رسل الله وهو توحيده تعالى وإخلاص الدين له وعبادته حق عبادته وتفويض الأمور إليه تبارك وتعالى دون غيره، حيث ذكر الله تعالى في هذه الآيات معاني جليلة، منها:

- أنه تعالى هو المتفرد بالخلق والتدبير والملك وهو خالق المخلوقات العظيمة التي تدل على ما دونها فهو خالق السماوات والأرض وما بينهما على غير مثال سابق بإتقان عجيب فلا ترى فيها تفاوتاً ولا خللاً، وأن الله تبارك وتعالى هو مدبر الأمور ومصرفها على مقتضى حكمته وإرادته فله الحكمة البالغة والمشيئة النافذة، وهذا كله في تقرير توحيد الربوبية وهو الذي كان يقر به أهل الجاهلية فالله هو الخالق المالك المدبر.
- ثم بينت الآية أن الشفاعة لا تنفع إلا لمن أذن له الرحمن وهو من رضي عمله، ففي هذا تقرير لعظمته وعز جلاله، ورد على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، ففي الآية بيان الشفاعة المنفية والمثبتة.

(١) ينظر: تفسير ابن جرير(١٨/١٥)، وتفسير ابن كثير(٢٤٧/٤).

- ثم ذكر الله تعالى استحقاقه لتوحيد الألوهية والعبادة لأنه هو رب العباد وخالقهم ولا رب لهم سواه، فبعد أن قرر توحيد الربوبية الذي يقر به المشركون في الجملة أثبت وجوب العبادة له وحده لا شريك له وذلك أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، فالخالق الموجد للأشياء المتصرف فيها هو المستحق للعبادة، وبناء عليه فالواجب على العباد أن يخلصوا له العبادة وحده لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكه.
- وكذلك تضمنت الآية ذكر بعض صفات الله تبارك وتعالى وأنه مستو على عرشه عال على خلقه على ما يليق بجلاله.

فبهذا يتبين وجه كونها أجمع آية كما قال محمد رشيد رضا؛ حيث تضمنت آية واحدة أنواع التوحيد الثلاثة بأسلوب بديع وإيجاز بليغ.

وهذه الآية مكية ضمن سورة مكية وهي سورة يونس[1].

(١) والقول بمكيتها هو المشهور والمعتمد عند جماهير العلماء. ينظر: التحرير والتنوير(٦/٨)، والمكي والمدني من السور والآيات لعبدالرزاق حسين أحمد(٣١٨/١).

المطلب الثالث: علاقة هذه المعاني بمقصد السورة:

تدور مقاصد السورة على تجلية عقيدة التوحيد لله تعالى، والبعث والجزاء، وإثبات الرسالة، وبيان فساد اعتقاد المخالفين والكافرين وذكر العقوبات التي حلت بهم جزاء مخالفتهم(١).

وهذه الآية الجامعة قد حوت معاني جليلة مرتبطة بالمقاصد العظيمة لهذه السورة حيث بينت حقيقة التوحيد بأنواعه الربوبية والألوهية والأسماء والصفات على ما تقدم من بيان، وتضمنت الرد على المشركين وغيرهم ممن يزعم أن شركاءهم سيشفعون لهم عند ربهم لما لهم من المنزلة عنده كما يزعمون فأوضحت بالبيان الشافي أن الشفاعة على نوعين منفية وهي شفاعة من لم يأذن الله له، وشفاعة مثبتة وهي شفاعة الذين يرتضيهم الله فيأذن لهم بالشفاعة.

فأنت تلحظ الارتباط الوثيق بين مقاصد السورة والمعاني التي جمعتها هذه الآية الجامعة لجملة مقاصدها.

(١) ينظر: التحرير والتنوير(٧٨/١١)، وتفسير المنار(١٤١/١١).

المبحث الثاني: أجمع آية في الخير والشر

قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [سورة النحل:٩٠].

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: "إن أجمعَ آية في القرآن للخير والشر في سورة النحل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [سورة النحل:٩٠][1].

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآية:

لما ذكر الله تعالى في الآية قبلها أن هذا القرآن العزيز أنزل تبيانًا لكل شيء للحلال والحرام والثواب والعقاب والخير والشر فقال: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ [سورة النحل:٨٩]. بين بعدها مباشرة في هذه الآية الجامعة الخير الذي يأمر به والشر الذي ينهى عنه فأوجز العبارة وجمع المعاني العظيمة في آية واحدة ببيان بليغ وخطاب عجيب.

ففي هذه الآية الجامعة أخبر ربنا تبارك وتعالى أنه يأمر في كتابه بالعدل وهو الإنصاف والقسط والموازنة، وذلك بأن يؤدي حق الله وحق عباده، ولا

(١) سبق تخريجه في المقدمة.

يفضل أحدا على أحد في الحكم أو غيره إلا بحق يوجب ذلك التفضيل.

ويأمر بالإحسان في أداء حق الله تعالى بأن يعبده كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، ويأمر بالإحسان إلى خلقه عمومًا حتى إلى الحيوان البهيم؛ فإن الله كتب الإحسان على كل شيء وفي كل شيء، ومن الإحسان التفضل على عباد الله بما ليس بواجب كالإنفاق تطوعًا، والعفو عن المسيء.

ويأمر بأداء حق ذوي القرابة ما أوجبه الله لهم من نفقة وغيرها. ويدخل في ذلك جميع الأقارب قريبهم وبعيدهم لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر.

وقوله: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والمنكر والبغي﴾ وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر قولًا وفعلًا كالشرك بالله والقتل بغير حق، وغيرها.

وينهى عن المنكر وهو كل ذنب ومعصية تتعلق بحق الله تعالى.

وينهى عن البغي وهو كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض.

﴿يَعِظُكُمْ﴾ به أي: بما بينه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرتكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ رجاء أن تعتبروا بما يعظكم به فتفهمونه وتعقلونه، وتعملون بمقتضاه لتسعدوا سعادة لا شقاوة معها[1].

(١) ينظر: جامع البيان(٢٧٩/١٧)، وتفسير ابن كثير(٥٩٥/٤)، وتفسير السعدي ص(٤٤٧).

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآية:

في هذه الآية الكريمة التي هي أجمع آية في ضبط وبيان الحلال والحرام، والأمر والنهي، كما قاله ابن مسعود ﷺ؛ جمع الله تبارك وتعالى معاني عظيمة أصبحت أصولًا ضابطة وقواعد حاكمة في الشرع والأخلاق وفي جميع الأحوال، وهذا بيان لشيء مما تضمنته:

- أمر الله تعالى بثلاثة أوامر جامعة لأصول المأمورات فأمر بالعدل وهو الإنصاف والقسط، وهذا عام في كل شيء فالعدل واجب، فلا يجوز الظلم بحال من الأحوال لأي شيء كائنًا ما كان، فالعدل قامت عليه السماوات والأرض.

ومن هذا العدل أداء حق الله تعالى بصرف العبادة له وحده لا شريك الله، وذلك أن أعظم الظلم صرف شيء من حق الله تعالى لشيء من خلقه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة لقمان:١٣].

ومن ذلك أيضًا: الإقرار بمن أنعم علينا بنعمته، والشكر له على إفضاله، وتولي الحمد أهله.

ومن العدل أيضًا أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل من ولاه الله أمرًا ما يجب عليه بلا حيف ولا نقص ولا ظلم.

ومن العدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر

المعاوضات، بإيفاء جميع ما عليك فلا تبخس لهم حقًّا ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم.

-وأمر الله تعالى بالإحسان وقد أطلقه فيشمل الإحسان في كل شيء وأعظمها حقوق الله تعالى بأن تؤدى كما أمر، وقد بين ﷺ الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١)

ومن الإحسان الذي أمر به وهو فضيلة مستحبة نفع الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع حتى إنه ليدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

- ومما أمر الله به أن يعطي العبد قرابته حقهم من نفقة وغيرها وأن يحسن إليهم، وخص الله إيتاء ذي القربى -وإن كان داخلًا في العموم- لتأكد حقهم وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك.
- وبعد أن ذكر الأوامر الثلاثة أتبعها بذكر المناهي الثلاثة أيضًا وهي جامعة لأصول المنهيات فبدأ بالنهي عن المنكرات العظام وهي الفواحش ويدخل فيها كل ما يستفحشه ويستقبحه الشرع والعقل والفطرة وأعظمها الشرك بالله العظيم فهو أعظم الكبائر ويدخل فيها أيضًا جميع الكبائر التي نهى الله عنها كالزنا والسرقة والفرار من الزحف وغيرها.

ونهى عن المنكرات كلها وهي الذنوب التي تتعلق بحق الله تعالى، فيجب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه(١٩/١) ح(٥٠)- كتاب الإيمان- باب سؤال جبريل النبي ‘، وأخرجه مسلم في صحيحه(٣٦/١)، ح(٨)، كتاب الإيمان – باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر..

على المسلم اجتنابها.

ونهى عن البغي على عباد الله بالتعدي على حقوقهم من الأموال والأعراض والدماء وجميع الحقوق.

فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات فلم يبق شيء إلا دخل فيها، فهي قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به، وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء(١).

قال قتادة: "ليس من خُلُقٍ حَسَن كان في الجاهلية يُعمل ويُستحسن إلا أمر الله تعالى به في هذه الآية، وليس من خُلق سيء إلا وقد نهى الله تعالى عنه فيها"(٢).

وبعد هذا يتبين بجلاء وجهُ وصفِها بأنها أجمع آية؛ حيث تضمنت آية واحدة كل هذه المعاني العظيمة والأصول الكبيرة والتي يرجع غيرها إليها ويدخل فيها سواها، فثلاثة أصول وقواعد في الخير، وثلاثة أخرى في الشر من وعاها وعمل بها ربح الخير وأنجح، وسلم من الشرور وأبعد.

وهذه الآية مكية ضمن سورة النحل المكية(٣).

---

(١) وينظر: جامع البيان(٢٧٩/١٧) وما بعدها، تفسير السعدي(٤٤٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٢٨٠/١٧).

(٣) وهو قول جماهير العلم والمروي عن ابن عباس وابن الزبير، أخرجه ابن مردويه ينظر: الدر المنثور(١٠٧/٥). وينظر:

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآية بمقصد السورة:

قامت السورة على مقاصد عظيمة أهمها: ذكر عدد متنوع من الأدلة على توحيد الله تعالى واستحقاقه الألوهية، والأدلة على فساد دين المشركين وإظهار شناعته، والأدلة على إثبات رسالة النبي ﷺ وإنزال القرآن عليه، وذكر عاقبة الإشراك بالله والتحذير منها، وبيان أن شريعة الإسلام قائمة على أصول ملة إبراهيم عليه السلام، وأن هذا الدين قائم على العدل والإحسان والنهي عن الظلم والبغي والإجرام(١).

وهذه الآية العظيمة اشتملت على معاني جليلة مرتبطة ارتباطًا ظاهرًا بمقصد السورة فالآية ذكرت أمر الله بالعدل والإحسان وهذا يتضمن الأمر بتوحيد الله تعالى بأنواع التوحيد فهو غاية العدل والإحسان، ونهى الله فيها عن الفحشاء والمنكر والبغي وكلها معاني محظورة وأول ما يدخل فيها النهي عن الشرك بالله وصرف شيء من العبادة لغيره أو اعتقاد مدبر وخالق ومنعم غير الله تعالى فهذا أعظم الفواحش والمنكرات وأعظم البغي بالاعتداء على حق الله تعالى وصرفه إلى غيره.

***

المكي والمدني من السور والآيات لعبدالرزاق حسين(٣٥٣/١).

(١) ينظر: التحرير والتنوير(٩٤/١٤).

المبحث الثالث: أجمع آية في الحث على الخير والتحذير من الشر

قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [سورة الزلزلة:٧-٨].

عن الشعبي، قال: لقي عُمر بن الخطاب رضي الله عنهما رَكْباً في سفر فيهم ابن مسعود رضي الله عنهما، فأمر رجلاً يُناديهم من أين القوم؟ قالوا: أقبلنا من الفَجّ العَمِيق نريد البيت العتيق.

فقال عمر: إن فيهم لعالماً.. إلى أن قال: **نادِهم أيّ القرآن أجمع، قال:** ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾. إلى أن قال: أفيكم ابن مسعود، فقالوا: نعم(١).

وقد جاء عن النبي ﷺ وصفها بأنها الآية الجامعة الفاذة كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الحمر، فقال: «ما أنزل الله علي فيها إلا هذه الآية الفاذة الجامعة» ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾(٢).

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآيات:

ذكر الله تعالى في هذه السورة الكريمة بعض أهوال القيامة من زلزلة الأرض

---

(١) أخرجه السِّلفي في المختار من الطيوريات(١٧٣)، (٢٤٦/١)، قال عنه محققو الكتاب: "إسناده ضعيف جدًّا، فيه: مجالد بن سعيد ليس بالقوي، والهيثم بن عدي فإنه متروك، واتهمه بعضهم، والعكلي وابن أبي خالد لم أعرفها". ثم هو أيضًا منقطع لأن الشعبي لم يلق عمر ¢؛ حيث ولد لست سنين خلت من خلافة عمر. ينظر: سنن الدارقطني حيث نص على أنه لم يدركه(٤٢٦/٤)، وتهذيب الكمال(٢٨/١٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ح(٧٣٥٦)، (١٠٩/٩)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الأحكام التي تعرف بالدلائل..، ومسلم في صحيحه ح(٩٨٧)، (٦٨٠/٢)، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة.

وإخراج الأرض أثقالها، وأن الأرض تحدث أخبارها وتذكر ما علمه ابن آدم على ظهرها حين يأمرها الله بذلك، وذلك حين يرجع الناس عن مواقف الحساب حين يقضي الله بينهم متفرقين متنوعين فمن ناج مسلَّم مأمور به إلى الجنة ومن هالك مأمور به إلى نار الجحيم ليريهم الله أعمالهم وجزاءها. قال الله بعد ذلك: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ فمن يعمل وزن نملة صغيرة من أعمال الخير والبر يره أمامه حاضرًا، ومن يعمل بعمل وزن نملة صغيرة من شر يره كذلك، وهذا عام شامل لكل عمل من الخير والشر(١).

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآيات:

هذه الآية الجامعة الفاذة بنص النبي ﷺ أصل كبير في الحث والترغيب في العمل الصالح مهما قلَّ وصغر، وهي أصل في التحذير من الإثم والتنفير من الشر كله صغيره وكبيره؛ لأن الإنسان إذا كان سيؤاخذ بمثاقيل الذر –التي هي أحقر الأشياء– من الخير والشر فلأن يؤاخذ بما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، ففي هذا أعظم الترغيب في الخير والبر، وأعظم التحذير من الشرور والإثم، ولهذا يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٣٠﴾ [سورة آل عمران: ٣٠].

(١) ينظر: جامع البيان(٥٥٠/٢٤)، وتفسير ابن كثير(٤٦٢/٨)، وتفسير السعدي(٩٣٢).

وهذه الآية مدنية ضمن سورة الزلزلة المدنية[1].

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآيات بمقصد السورة:

مقصد هذه السورة ظاهر جدًّا فهي في إثبات البعث وذكر أشراطه، وما يكون فيه من الإحصاء الدقيق والحساب على مثاقيل الذر والجزاء على ذلك[2].

وهاتان الآيتان الجامعتان قائمتان على بيان الحساب الدقيق والجزاء على الصغير والكبير في الخير والشر، وفيها الاستنهاض الظاهر لفعل الخير ولو دق، واجتناب الشر ولو قل؛ لأن الله تعالى وعد بالجزاء الأوفى على مثاقيل الذر من الخير، وتوعد بالمحاسبة والمجازاة على مثاقيل الذر من الخطيئات، فالعلاقة ظاهرة بين هذه المعاني ومقصد السورة.

****

(١) والقول بمدنيتها هو الأظهر من القولين، وهو المروي عن ابن عباس، وقتادة، وهو منسوب إلى أبي، وجابر، ومقاتل، ورجحه السيوطي. ينظر: الإتقان(٤١/١)، والمكي والمدني من الآيات والسور د. محمد الفالح ص(٥٨٤).

(٢) ينظر: مصاعد النظر(٢٣١/٣)، والتحرير والتنوير(٤٩٠/٣٠).

المبحث الرابع: أجمع آية في الترغيب بالعمل الصالح

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة النحل:٩٧].

قال الدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي: "أجمع آية للرجال والنساء في الترغيب بالعمل الصالح ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾"[1].

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآية:

بعد أن رغب الله المؤمنين في الآية قبلها في الصبر على ما التزموه من شرائع الإسلام وأن لا يشتروا بعهد الله ثمنًا قليلًا بقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة النحل:٩٦] ووعدهم بأن يجزيهم على أحسن أعمالهم التي تشمل المباحات والمندوبات والواجبات، ويثيبهم على ما عدا المباحات؛ رغّب المؤمنين في هذه الآية بالإتيان بكل ما كان من شرائع الإسلام بهذا الوعد الجزيل والثواب والجزاء الجميل.

وقد وعد الله تعالى بهذه الآية العاملين رجالًا ونساء في الدنيا والآخرة فذكر

(١) التفسير المنير(٢٢٧/١٤).

جزاء من عمل صالحاً -وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ- من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، ومصدق به وبأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله محتسبًا ثوابه؛ بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا -والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت-، وأن يجزيه في الدار الآخرة بأحسن ما عمله من الأعمال الصالحة الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة، ويؤتيه في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة[1].

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآية

جمعت الآية الكريمة معاني عظيمة ووعودًا جزيلة على الأعمال الصالحة مما جعلها أجمع آية في الترغيب في الأعمال الصالحة؛ وذلك أن الله تعالى قد وعد بالجزاء الحسن في الدنيا والآخرة من عمل الصالحات وتقرب إليه بسائر القربات مبتغيًا بذلك وجهه، ومحسنًا عمله.

وقد وعد الله من عمل الصالحات من ذكر وأنثى على حد سواء متبعًا بذلك شرع الله ومخلصًا العبادة له- وذلك أنهما شرطا قبول الأعمال بل لا تسمى أعمالًا صالحة إلا بهذا-؛ بالجزاء الحسن في الدنيا بأن يكرمه بالحياة الطيبة في الدنيا، وهي شاملة لوجوه الراحة من أي جهة كانت، ومنها: السعادة والقناعة وراحة البال والرزق الحلال والتوفيق إلى الطاعات، وغير ذلك مما قيل في معناها[2]، وفي الآخرة الجزاء الأوفى بأن يجازيهم على أعمالهم الصالحة ويتجاوز عن سيئها، وبمجازاتهم على أعمالهم بأشرف وأوفر الحسنة بعشر

(١) ينظر: تفسير ابن كثير(٦٠١/٤)، وتفسير السعدي ص(٤٤٩)، والتفسير المنير للزحيلي(٢٢٨/١٤).
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير(٦٠١/٤).

أمثالها، وعلى العمل الصالح بأفضل أفراده الحسنة[1].

ففي الآية أعظم الترغيب في الأعمال الصالحة للرجال والنساء لما وعدهم الله من الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، ولما رغبهم فيه من تسهيل الطاعات وتقريبها لهم كما في الآية، وهذا وجه كونها أجمع آية في الترغيب بالعمل الصالح والحض عليه.

والآية مكية في سورة النحل المكية.

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآية بمقصد السورة:

من مقاصد سورة النحل: العناية بذكر أدلة التوحيد بأنواعه، وإبطال عقائد المشركين بعدة وجوه، وبيان توحيد الألوهية والحض على إخلاص العبادة لله، والترغيب والترهيب والوعد والوعيد في هذا الخصوص، والتذكير بنعم الله إلزامًا بعبوديته وتحذيرًا من الكفر به[2].

وهذه الآية هي أجمع آية في الترغيب بعبادة الله تعالى والتزام شرائعه، حيث تضمنت الحث على الأعمال الصالحة بأسلوب فريد وبيان شرائط القبول الذي يترتب عليه الجزاء الموعود، فالآية تحض على الطاعة بما تضمنته من الوعد الحسن عليها في الدنيا والآخرة حيث إن كل أحد من الناس ينشد السعادة وراحة البال والعيشة الهنية والحياة الطيبة في الدنيا والجزاء الحسن في الآخرة بالحسنى؛ وهذا هو ما ذكرته الآية من أن سبيله العمل الصالح مع الإيمان والاحتساب.

---

(١) ينظر: جامع البيان(٢٨٩/١٧)، وتفسير ابن كثير(٦٠١/٤) ، وفتح القدير(٢٢٩/٣)، وتفسير السعدي ص(٤٤٩).

(٢) ينظر: التفسير الوسيط لطنطاوي(٩٦/٨).

المبحث الخامس: أجمع آية في الحض على الإنفاق في وجوه الخير

قال الله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [سورة البقرة:٢٧٢].

قال محمد سيد طنطاوي مبينًا أنها من أجمع الآيات ووجه ذلك: "هذا، والذي يتدبر هذه الآية الكريمة يراها **من أجمع الآيات التي وردت** في الحض على بذل المال في وجوه الخير، فقد كرر فيها فعل تُنْفِقُونَ ثلاث مرات لمزيد الاهتمام بمدلوله، وجيء به مرتين بصيغة الشرط عند قصد بيان الملازمة بين الإنفاق والثواب، وجاءت كل جملة منها مستقلة ببعض الأحكام لكي يسهل حفظها وتأملها فتجرى على الألسنة مجرى الأمثال وتتناقلها الأمم والأجيال"(١).

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآية

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ ليس عليك هداية المشركين إلى الإسلام فتمنعهم من الصدقة، وإنما عليك البلاغ المبين، والهداية بيد الله تعالى، ففيها: دلالة على أن النفقة كما تكون على المسلم تكون على الكافر المحتاج ولو لم يهتد، فلهذا قال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: قليل أو كثير على أي شخص كان من مسلم وكافر ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: نفعه راجع إليكم ﴿وَمَا

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي(١/٦٢٥).

تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ هذا إخبار عن نفقات المؤمنين الصادرة عن إيمانهم أنها لا تكون إلا لوجه الله تعالى؛ لأن إيمانهم يمنعهم عن المقاصد الردية ويوجب لهم الإخلاص ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ يوم القيامة تستوفون أجوركم ﴿ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ أي: تنقصون من أعمالكم شيئًا ولا مثقال ذرة، كما لا يزاد في سيئاتكم[1].

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآية

هذه الآية من أجمع الآيات في الحث على البذل والإنفاق في سبيل الله، وقد تضمنت جملاً جامعة وقواعد نافعة؛ فمنها:

- أن الهداية بيد الله تعالى ليست لأحد من الناس، وإنما عليهم البلاغ، فصارت هذه الجملة ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ قاعدة عظيمة ومثلًا يقتفى ويتبع.
- وهذه الآية جاءت لتقرر معنى عظيمًا وأصلًا كبيرًا وهو الحث على البذل والإنفاق فصارت من أجمع الآيات في هذا الخصوص؛ وذلك أنها قررته وأكدته بعدة طرق:

ابتداء من قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ فعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كانوا لا يرضخون لأنسبائهم من المشركين، فنزلت: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

(١) ينظر: جامع البيان(٥٨٧/٥)، وتفسير السعدي ص(١١٦).

يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ فرخص لهم[1]. فالآية في شأن جواز النفقة على الكافر المحتاج وأن لا يمنع منها لأجل كفره؛ ففي هذا بيان لسعة رحمة الله بخلقه فرحمته في الدنيا واصلة للكافر مع كفره، وإذا كان كذلك فالنفقة على المسلم المحتاج آكد وأولى.

ثم جاء الحث على النفقة والتأكيد عليها في الجمل التالية فقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ ففيها بيان أن ثواب النفقة ونفعها عائد للمنفق قبل المنفق عليه، وأن الله غني عن هذه النفقة، فيا من تطلب سعة الرزق والبركة في المال والثواب الجزيل في الآخرة فعليك بكثرة الإنفاق منه مبتغيًا بذلك وجه الله، ولا تطلب من أحد غيره جزاء ولا شكورًا كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩﴾ [سورة الإنسان:٩].

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ بين الله في هذه الجملة الكريمة أن من شأن المؤمن أن لا ينفق إلا لوجه الله لا يرجو من أحد من الخلق جزاء ولا شكورًا فهذا من أعظم الدواعي للإنفاق.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢﴾ ثم أكد ذلك أيضًا بهذه الجملة بأن المنفق في سبيل الله لن يعدم الخير بل إن نفقته سيعود أثرها وجزاؤها عليه في الدنيا وفي الآخرة موفى غير منقوص فأكده بأن الله الذي سيوفيه أجره وجزاءه وأنه لن ينقص شيئًا.

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٦٢٠٤)(٥٨٨/٥)، قال سليم الهلالي وصاحبه: "سنده صحيح ورجاله ثقات".ا.هـ. الاستيعاب في بيان الأسباب(٢٠٨/١).

ولهذا صارت هذه الآية كما تقدم عن طنطاوي: "من أجمع الآيات التي وردت في الحض على بذل المال في وجوه الخير، فقد كرر فيها فعل {تُنْفِقُونَ} ثلاث مرات لمزيد الاهتمام بمدلوله، وجيء به مرتين بصيغة الشرط عند قصد بيان الملازمة بين الإنفاق والثواب، وجاءت كل جملة منها مستقلة ببعض الأحكام لكي يسهل حفظها وتأملها فتجرى على الألسنة مجرى الأمثال وتتناقلها الأمم والأجيال".

وهذه الآية مدنية في سورة مدنية وهي سورة البقرة[1].

(١) كما قال ابن كثير في تفسيره (١/١٥٥): "والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف".

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآية بمقصد السورة

من مقاصد سورة البقرة: إعداد الأمة لعمارة الأرض والتشريع للدولة الإسلامية الفتية وهذا ظاهر في النصف الثاني منها حيث جاءت بهذه التشريعات والتكاليف وما ينظم ويضبط مسار الفرد والمجتمع مجملة كما في آية ﴿ليس البر أن تولوا..﴾ الآية، ومفصلة كما في الآيات التي بعدها إلى آخر السورة حيث ذكرت أحكام الوصية والصيام والحج والجهاد والنفقة في سبيل الله وغير ذلك(١).

وهذه الآية الجامعة لهذه المعاني العظيمة لها علاقة وطيدة بهذا المقصد الكبير في هذه السورة، فإن من أعظم ما يقوي روابط المجتمع في الدولة ويحميه من التفكك والاختلاف والنزاع؛ التكافل الاجتماعي بين أبناء المجتمع، وهذا الدين العظيم قرر هذا في الكتاب العزيز بالأمر بالنفقة في سبيل الله على المحتاج، سواء منه ما كان حقًّا واجبًا أو غير واجب.

(١) ينظر: التفسير الوسيط(٣٦/١).

المبحث السادس: أجمع آية في الدعوة إلى الله وهداية الناس إلى الحق

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ٦٤].

قال محمد سيد طنطاوي: "تعتبر هذه الآية الكريمة من أجمع الآيات التي تهدي الناس إلى طريق الحق بأسلوب منطقي رصين، ولذا كان النبي ﷺ يكتبها في بعض رسائله التي أرسلها إلى الملوك والرؤساء ليدعوهم إلى الإسلام-.

فقد جاء في كتاب النبي ﷺ إلى هرقل- ملك الروم- «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام: أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1]»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/١)، ح(٧)، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ‘. ومسلم في صحيحه(١٣٩٣/٣)، ح(١٧٧٣)، كتاب الجهاد والسير-باب كتاب النبي ‘ إلى هرقل.

(٢) التفسير الوسيط لطنطاوي(١٣٥/٢).

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآية

قل -أيها الرسول- لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هلموا نجتمع على كلمة عدل ونَصَف نستوي فيها جميعًا ثم فسرها بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ فهي كلمة التوحيد أن يفرد الله تبارك وتعالى بالعبادة دون غيره مهما كانت منزلته، فلا نتوجه بالعبادة والخوف والرجاء ونحو ذلك لغير الله من الأصنام والطواغيت والصلبان ولا غيرها، وهذه دعوة الرسل عليهم السلام، فهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، ولم يخالفها إلا المعاندون والضالون، ليست مختصة بأحدنا دون الآخر، بل مشتركة بيننا وبينكم، وهذا من العدل في المقال والإنصاف في الجدال.

ثم قال: ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ ﴾ بل تكون الطاعة كلها لله ولرسله، فلا نطيع المخلوقين في معصية الخالق، لأن ذلك جعل للمخلوقين في منزلة الربوبية، فإذا دعي أهل الكتاب أو غيرهم إلى ذلك، فإن أجابوا كانوا مثلكم، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ وإن تولوا فهم معاندون متبعون أهواءهم فأشهدوهم أنكم مسلمون مستسلمون لله منقادون له بالطاعة[1].

(١) ينظر: تفسير ابن كثير(٥٦/٢)، وتفسير السعدي ص(١٣٣).

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآية:

في هذه الآية الجامعة لأصول الدعوة إلى الله بيان جلي لما يجب في الدعوة تقديمه على غيره والثبات عليه وإعلانه:

- حيث بينت بجلاء طريقة الدعوة وآدابها والمنهج الصحيح فيها لأهل الكتاب ومن جرى مجراهم؛ وذلك بأن تكون على علم وبصيرة فالتوجيهات إنما تتلقى من ربنا تبارك وتعالى وهو الذي تولى التوجيه في هذه القضية ﴿قل﴾ أيها الرسول لأهل الكتاب.
- ثم أيضًا بينت أن الدعوة إنما هي إلى توحيد الله تعالى ونبذ ما سواه كائنًا ما كان فليست الدعوة لمصالح شخصية أو مادية ولا إلى قضايا فرعية، وإنما تكون موجهة إلى أصل الأصول الذي لا يقبل من أحد صرف ولا عدل ولا عبادة إلى بعد الإتيان به وهو توحيد الله رب العالمين لا شريك له.
- وفيها أيضًا أن يتوجه إليهم بدعوتهم إلى الحق والخير والهدى ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ فالأمة مكلفة بتبليغ الدين والدعوة إليه وبهذا وجه الله نبيه عليه الصلاة والسلام .
- وفي هذه الآية بيان أن ما يدعو إليه النبي ﷺ من التوحيد هو دين الإسلام، الذي هو دين الأنبياء جميعًا حيث تتفق الشرائع على الدعوة إلى التوحيد واجتناب الشرك ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة النحل:٣٦]، وهذه هي الكلمة العدل الواحدة

كلمة التوحيد، وهذا هو الواجب على الداعية الحق أن يجتهد في تحقيقه في الناس والدعوة إليه.

- في الآية تقرير أن أعظم ما يُدعى إليه وهو من حقيقة التوحيد= نبذ كل أنواع الشرك بالله، من شرك الطاعة والمحبة والتعظيم أو غيرها، سواء في ربوبية الله أو إلاهيته أو أسمائه وصفاته، فلا يتخذ أحد أحدًا ربًّا مطاعًا من دون الله يطيعه في معصية الله ويتولاه من دون الله.
- ومما تقرره الآية وتأمر به أن يعلن بالتوحيد ويثبت عليه فإن لم يستجيبوا إلى ما دعوتهم إليه فلتعلن أنك لست مثلهم بل أنت ممن حقق التوحيد واستجاب لله وانقاد له.

ولعل الفائدة في ذلك: أنكم إذا قلتم لهم ذلك وأنتم أهل العلم على الحقيقة، كان ذلك زيادة على إقامة الحجة عليهم كما استشهد تعالى بأهل العلم حجة على المعاندين، وأيضًا: فإنكم إذا أسلمتم أنتم وآمنتم فلا يعبأ الله بعدم إسلام غيركم لعدم زكائهم ولخبث طويتهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة الإسراء:١٠٧]. وأيضًا: فإن ورود الشبهات على العقيدة الإيمانية مما يوجب للمؤمن أن يجدد إيمانه ويعلن بإسلامه، إخبارًا بيقينه وشكرًا لنعمة ربه[1].

وبعد هذا يتضح وجهُ وصفها بأنها أجمع آية في الدعوة إلى الله؛ حيث

(١) ينظر: تفسير السعدي ص(١٣٤).

أشارت هذه الآية إلى الأصول والضوابط في الدعوة إلى الله وهداية الخلق إلى الحق، وتقديم الأهم على المهم، وعدم الخلط والمراوغة، والمنهج الصحيح قبل وأثناء وبعد الدعوة إلى الله.

وهذه الآية مدنية ضمن سورة آل عمران المدنية(١).

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآية بمقصد السورة:

من مقاصد السورة الظاهرة: إثبات نبوة النبي ﷺ ورسالته، ودلائل صدق القرآن وصحته، وإقامة دلائل التوحيد لله رب العالمين وإبطال دين الكافرين ولا سيما أهل الكتاب وبخاصة النصارى، وتثبيت أهل الإيمان وترسيخ الإيمان في قلوبهم، وتقوية استسلامهم لله ودينه(٢).

وهذه الآية الجامعة قائمة على تقرير هذه المقاصد العظيمة بالمعاني التي جمعتها؛ ففيها تقرير التوحيد لله رب العالين ونبذ الإشراك بالله تعالى بأي وسيلة كانت، وبيان بطلان عقائد أهل الكتاب في جعلهم أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله بطاعتهم بما يخالف شرع الله كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [سورة التوبة:٣١]. فهذه الآية وغيرها مما يبين حقيقة عقيدة أهل الكتاب ويرد عليها بالدلائل الجلية والحجج القوية لعلهم يتذكرون، وهذا من أبرز مقاصد السورة.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير(٥/٢)، وحكاه ابن عاشور اتفاقًا. ينظر: التحرير والتنوير(١٤٣/٣).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير(١٤٥/٣).

المبحث السابع: أجمع آية لمكارم الأخلاق

قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [سورة الأعراف:١٩٩].

قال جعفر الصادق–رحمه الله–: «أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق **وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية»**[١].

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآية:

في هذه الآية الكريمة يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يعامل الناس بمكارم الأخلاق، وأن يستجمع الكمالات الإنسانية في هذا الباب، وهي وصية تعم أمته كذلك، فأمره الله تعالى بأن يأخذ العفو: وهو أن يقبل اليسير السهل من أخلاق الناس وما سمحت به نفوسهم، وأن لا يكلفهم ما لا يطيقون من ذلك، ولا يغلظ عليهم؛ لئلا ينفرهم ويثقل عليهم، وأمره أن يأمر بالعرف: وهو المعروف وهو ما تعرفه النفوس مما لا ترده الشريعة من كل أنواع البر والإحسان من الأفعال والأقوال، وأن يعرض عن الجاهلين المعاندين، فلا يقابلهم بجهلهم، ولا يؤذي من آذاه، ولا يحرم من حرمه[٢].

(١) ذكره الثعلبي في تفسيره(٣١٨/٤)، والبغوي في تفسيره(٣١٦/٣).
(٢) جامع البيان(٣٢٨/١٣)، والمحرر الوجيز(٤٩٠/٢).

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآية:

في هذه الآية الوجيزة البليغة الجامعة والتي هي أجمع آية في مكارم الأخلاق يوصي الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم آمراً له ومرشداً لأمته ومؤدبًا لهم باستجماع أعلى الخصال وأكرم الخلال التي يعامل بها المسلم غيره من الناس بشتى مراتبهم ومنازلهم ومواقفهم؛ وذلك أنه تعالى قد بعث نبيه صلى الله عليه وسلم متمماً لمكارم الأخلاق(١)، وقد كان خلقه القرآن(٢)، وأثنى عليه ربه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [سورة القلم:٤]، وهذا عرض موجز لهذه الخصال التي أمر الله بها:

-أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم وهو يعم أمته بالهدي الأكمل في التعامل مع الآخرين من كافة أصناف الناس؛ وذلك أن من الناس من هو حسن التعامل طيب المعدن كريم الخلق، ومنهم سيء الخلق، رديء الطبع؛ فأمره الله تعالى بأن يعامل كلًّا منهم بما يناسبه وفق المنهج القويم، دون أن يقابلهم بمثل ما عاملوه به، بل يزيد عليهم الفضل والإحسان، فالله تعالى أمره بقوله: ﴿خذ العفو﴾ والعفو يعم صور العفو كلها؛ لأن التعريف فيها للجنس فتفيد الاستغراق، وذلك بأن يقبل من أخلاق الناس عند معاملتهم ومعاشرتهم ما أتى عفوًا وهو الشيء اليسير، والسهل القريب من الأعمال والأخلاق دون تكليف بما يشق ولا إجهاد، ولا غلظة ولا عتاب، فهذا هو الذي ينبغي من كريم الخلق حسن

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده(٥١٣/١٤), ح(٨٩٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ". وصححه محققو المسند شعيب الأرناؤوط ومن معه.

(٢) أخرج الإمام أحمد في مسنده(١٤٨/٤١), ح(٢٤٦٠١) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}". وصححه محققو المسند.

التعامل، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم، وقد قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة آل عمران:١٥٩].

قال ابن عاشور: "والأخذُ حقيقتُه تناولُ شيءٍ للانتفاع به أو لإضراره، كما يقال: أخذت العدوَّ من تلابيبه،.. واستعمل هنا مجازًا فاستعيرَ للتلبُّس بالوصف والفعل من بين أفعالٍ لو شاء لتلبَّس بها، فيشبّه ذلك التلبُّسُ واختياره على تلبسٍ آخر بأخذ شيء من بين عدة أشياء، فمعنى ﴿خذ العفو﴾: عاملْ به واجعلْه وصفًا ولا تتلبَّس بضده"(١).

-ومما وصى به الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر الناس بكل ما هو معروف عند الناس غير مستنكر وكل ما هو بر من الأخلاق والأعمال والأقوال وغير ذلك، وذلك أن التعريف في (العرف) للجنس فيفيد الاستغراق لكل ما هو معروف، ويلزم منه أن لا يأمرهم بما هو منكر أو خلق مرذول وذلك أن الأمر يشمل النهي عن الضد؛ فالنهي عن المنكر أمر بالمعروف، فلا يلقون منه إلا البشر والخلق الجميل، ولا يوجههم إلا لما هو خير وبر وإحسان يصلحهم في أمور دينهم أو دنياهم، من علم نافع أو عمل صالح، وإصلاح بين الناس،

(١) التحرير والتنوير(٩/٢٢٦).

أو زجر عن قبيح.

-ولما كان من طبيعة التعامل مع الناس عدم السلامة من أولئك الجاهلين السفهاء، فإن بعض النفوس تنزع إلى الجهل والسفه والعناد ولا ينفع معها البر والإكرام، فلا تقبل نصحًا وتوجيهًا ولا إحسانًا، فأرشد الله إلى التعامل الأمثل مع هؤلاء وذلك بالإعراض عنه حتى لا يزداد جهلًا ولعله ينفع معه الإعراض ليعود إلى رشده، فقال تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ والإعراضُ: إدارةُ الوجه عن النظر للشيء. مشتقٌّ من العارض وهو الخَدّ، فإن الذي يلتفت لا ينظر إلى الشيء وهو هنا مستعار لعدم المؤاخذة بما يسوء من أحد[1]. فلا يقابله بالجهل تبعًا لجهله، ولا يؤذيه بسبب أذيته، وهذا غاية الكرم في الأخلاق.

قال ابن كثير: "قال بعض العلماء: الناس رجلان: فرجل محسن، فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه. وإما مسيء، فمُرْه بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله، واستعصى عليك، واستمر في جهله، فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده،.. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [سورة فصلت:٣٤]"[2].

فهذه الآية مع وجازتها تضمنت مكارم الأخلاق فهي بحق يصدق عليها الوصف بأنها أجمع آية في مكارم الأخلاق؛ وذلك أن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفوًا عن اعتداء فتدخل في ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾، أو إغضاءً عما لا يلائم

(١) ينظر: المرجع السابق.
(٢) تفسير ابن كثير(٥٣٢/٣).

فتدخل في ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، أو فعل خيرٍ واتساماً بفضيلة فتدخلُ في ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ حيث إن الأمرَ بالأمرِ بالشيءِ أمرٌ بذلك الشيء[1].

وهذه الآية مكية ضسمن سورة الأعراف المكية[2].

(١) ينظر: التحرير والتنوير(٢٢٩/٩).

(٢) ينظر: المكي والمدني من الآيات والسور لعبدالرزاق حسين أحمد(٣٠٩/١).

المطلب الثالث: علاقة هذه المعاني بمقصد السورة

هذه السورة مكية شأنها شأن السور المكية الأخرى التي تقوم في الغالب على مقصد عظيم وهو تقرير العقيدة الصحيحة ونبذ كل ما يضادها ويخالفها وكشف زيغ وضلال المخالفين، ومقصد سورة الأعراف الأكبر هو التحذير من الشرك والشركاء والإفساد في الأرض، وبيان سنة الصراع الدائم بين الحق والباطل من خلال ذكر تاريخ الأمم الماضية المخالفة لدعوة الرسل، وذكر عاقبة هذا الصراع بالنسبة للمخالفين للرسل والمتبعين لهم(١).

وهذه السورة قد أفاضت في بيان حال المشركين وكشف ضلالهم ووعظهم ومقارعتهم بالحجج، وإقامة الحجة عليهم، وتشويه معتقداتهم، وذلك بعدد من الأدلة والشواهد، وأنذرتهم بأن يحل بهم مثل ما حل بمن هم أشد منهم قوة ومكرًا، ثم إن هذا البيان الصريح والمقارعة القوية سيترتب عليها بطبيعة الحال أن تثار حفائظ أولئك المشركين وستزداد عداوتهم، فلهذا ختم السورة بهذا الأدب الرفيع والكرم الأخلاقي بأن يسعوهم بأخلاقهم بالعفو والصفح، وبأن لا يبالوا بمكرهم وسفههم، وأن لا يقابلوا جهلهم بالجهل بل بالفضل والإحسان رغبة في هدايتهم وصدًّا لعادية مكرهم وبطشهم، وأن يستمروا بدعوتهم وأمرهم بالخير والهدى والرشد.

****

(١) ينظر: مصاعد النظر: (١٣٠/٢)، والتحرير والتنوير(٨/٨).

المبحث الثامن: أجمع آية للتكاليف الدينية

قال الله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [سورة البقرة:١٧٧].

قال محمد أبو زهرة: "وقد ذكر الله تعالى صنوف البر كلها في هذه الآية الكريمة، وكانت بحق آية البر، لأنها جمعت أطرافه، ونواحيه كلها، وهي من أجمع الآيات للتكليفات الدينية"(١).

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآية

لما أمر الله تعالى المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حولهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله ﷻ، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق إلى المغرب بر ولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه؛ ولهذا قال: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ

(١) زهرة التفاسير (٥١٨/١). وبنحوه قال القطان في تيسير التفسير(٩٤/١) بترقيم الشاملة.

ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ..﴾ الآية.

يقول تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد والخير المرضي عند الله مجرد التوجه إلى جهة المشرق أو المغرب والاختلاف في ذلك، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أي: ولكن الخير كل الخير في الإيمان بالله بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص.

﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ والإيمان باليوم الآخر وهو كل ما أخبر الله به في كتابه، أو أخبر به الرسول، مما يكون بعد الموت.

﴿وَالْمَلائِكَةِ﴾ بجميع الملائكة الذين وصفهم الله لنا في كتابه، ووصفهم رسوله ﷺ ﴿وَالْكِتَابِ﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على رسوله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام، ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ عمومًا، وبالأخص خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ.

﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ وهو كل ما يتموله الإنسان من مال، قليلًا كان أو كثيرًا، أي: أعطى المال ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ أي: مع حبه للمال مبرهنًا على صدق إيمانه.

ثم ذكر المنفق عليهم، وهم أولى الناس ببرك وإحسانك من الأقارب الذين تتوجع لمصابهم، وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاقلون.

وآتى من ماله اليتامى واليتيم: هو من فقد أباه دون البلوغ، وآتى من لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمته تعالى بالعباد. ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجة، وأذلهم الفقر فلهم حق على الأغنياء، بما يدفع مسكنتهم أو يخففها، بما يقدرون عليه، وبما يتيسر، ﴿وَابْنَ

السَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فحث الله عباده على إعطائه من المال، ما يعينه على سفره، لكونه مظنة الحاجة.

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ أي: الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج، توجب السؤال، ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ فيدخل فيه العتق والإعانة عليه، وبذل مال للمكاتب ليوفي سيده، وفداء الأسرى عند الكفار أو عند الظلمة.

﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ وهو مقيم للصلاة على وجهها المفروض في أوقاتها، مؤتٍ لزكاة ماله إن وجبت عليه، والله يقرن بين الصلاة والزكاة، لكونهما أفضل العبادات، وأكمل القربات، عبادات قلبية، وبدنية، ومالية، وبهما يوزن الإيمان، ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان.

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ والعهد: هو الالتزام بإلزام الله أو إلزام العبد لنفسه. فدخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدتها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد، التي أوجبها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالأيمان والنذور، ونحو ذلك.

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ أي: الفقر؛ لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره بسبب فقره.

﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: المرض على اختلاف أنواعه، من حمى، وقروح، ورياح، ووجع عضو، حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك؛ لأن النفس تضعف، والبدن يألم، وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصًا مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر، احتسابًا لثواب الله تعالى.

﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي: وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم، لأن الجلاد يشق غاية المشقة على النفس، ويجزع الإنسان من القتل، أو الجراح أو الأسر، فاحتيج إلى الصبر في ذلك احتسابًا ورجاء لثواب الله تعالى الذي منه النصر والمعونة التي وعدها الصابرين.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة، والأعمال التي هي آثار الإيمان، وبرهانه ونوره، والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقة الإنسانية، فأولئك هم ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في إيمانهم، لأن أعمالهم صدقت إيمانهم، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ لأنهم تركوا المحظور، وفعلوا المأمور؛ لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير، تضمنًا ولزومًا؛ لأن الوفاء بالعهد يدخل فيه الدين كله، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات، ومن قام بها كان بما سواها أقوم، فهؤلاء هم الأبرار الصادقون المتقون[1].

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآية:

هذه الآية الكريمة هي أجمع آية لمعاني البر وأصول الخير والأعمال الصالحة.

قال البيضاوي: "والآية كما ترى جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها، دالة عليها صريحًا أو ضمنًا، فإنها بكثرتها وتشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء: صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس. وقد أشير إلى الأول بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾. وإلى الثاني بقوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ وإلى الثالث بقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا

(١) ينظر: أنوار التنزيل(١/١٢١)، وتفسير ابن كثير(١/١٨٥)، وتفسير السعدي(٨٣-٨٤).

عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ولذلك وُصِف المستجمعُ لها بالصدق نظرًا إلى إيمانه واعتقاده بالتقوى، اعتبارًا بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق"(١).

وقال ابن كثير: "اشتملت هذه الآية الكريمة، على جمل عظيمة، وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة.. وقال الثوري: ﴿ولكن البر من آمن بالله﴾ الآية، قال: هذه أنواع البر كلها. وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله"(٢).

فالآية كما ترى جمعت خصال الخير، وأصول البر، ونحن نشير إلى هذه المعاني العظيمة إجمالًا:

-حيث حصرت الآية الخير والبر والمعروف بهذه الخصال المذكورة التي من استجمعها حاز الخير كله، فبدأت بذكر رأس الخير وسنامه وأصله وهو الإيمان بأركانه كلها؛ الإيمان بالله تعالى وأن لا إله غيره، وتوحيده بربوبيته وإلاهيته وأسمائه وصفاته. وهذا الإيمان بالله والتصديق به والإذعان له مستلزم للإيمان بقضاء الله وقدره الذي هو أحد أركان الإيمان أيضًا كما جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال في الإيمان: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(٣).

وكذا الإيمان باليوم الآخر والبعث بعد الموت وما يكون بعد ذلك من الحساب والجزاء والجنة والنار وغير ذلك، والإيمان بجميع الملائكة الكرام ومن

(١) أنوار التنزيل(١/١٢١).
(٢) تفسير ابن كثير(١/٤٨٥-٤٨٦).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه(١/٣٧)، ح(٨)، كتاب الإيمان- باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر..

علمنا منهم ووظائفهم إلى غير ذلك من خصائصهم. وأيضًا الإيمان بجميع الكتب التي أنزلها الله على رسله وبخاصة كتاب نبينا محمد عليه الصلاة والسلام حيث نسخ الكتب السابقة وجمع ما فيها من الخير والبر. والإيمان بجميع رسل الله عليهم السلام، وبالأخص سيد ولد آدم محمد ﷺ نبي الهدى.

فهذا الجزء من الآية جمع أركان الإيمان، وأوضح العقيدة الصحيحة، وهذا هو البر في العقيدة.

- ثم ذكرت الآية أصول الإحسان والمعروف وحسن المعاشرة إلى الخلق؛ وذلك أن هذا الدين دين كامل شامل يصحح الاعتقاد ويهذب الأخلاق، ويأمر بالإحسان والفضل.

فمن أعظم البر والمعروف إيتاء المال وبذله في وجوهه المشروعة مع حب الإنسان له فطرة؛ فالبذل للمال مع حبه ولا سيما والإنسان صحيح شحيح يخشى الفقر ويأمل الغنى من براهين صدق الإيمان وقوة اليقين ولهذا أثنى في الآية على المنفقين ونوه بهم، ولا سيما إذا كان الإنفاق على ذوي القرابة لحقهم ولقرابتهم، وكذا اليتامى ممن لا مال لهم ولا كاسب لعظيم حقهم وشدة ضعفهم، والمساكين الذين لا يجدون كفايتهم فهم بحاجة إلى من يكفيهم، وإعطاء ابن السبيل وهو المنقطع في سفره وطريقه ولو كان غنيًّا في بلده لما هو فيه من الحاجة فيعطى ما يكفيه ويوصله، والسائلين الذين يعترضون بالسؤال لحاجتهم وفاقتهم، وكذا فك الرقاب بعتقها والإعانة على ذلك، وكذا فك أسارى المسلمين، ونحو ذلك.

- ثم بينت الآية بعض خصال البر مما يهذب النفس ويزكيها، ويقربها إلى

ربها ويرقيها، ويدفعها إلى مقامات الإحسان والكمال، فبدأ بأعظم التكاليف البدنية وهي الصلاة؛ إذ هي الركن الثاني بعد التوحيد، وإقامتها بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها والمحافظة على أوقاتها من أعظم ما يقرب إلى الله ومن أكثر ما يحبه الله ويرضاه، وثنى بالعبادة المالية وهي أداء الزكاة إلى مستحقيها عند وجوبها فبها تزكو النفس وتتطهر وتتخلى عن حظوظها وبها يصل الخير والمعروف إلى المحتاج من المسلمين ويعم النفع ما تصله من المصارف المشروعة، والصلاة والزكاة قرينان في الكتاب والسنة ولهذا قرن بينهما.

- ثم ذكر الله تعالى أن من أعظم البر الوفاء بالعهود والالتزام بالمواثيق، وهذا من دلائل الصدق وبراهين النقاء والصفاء. والعهد: هو الالتزام بإلزام الله أو إلزام العبد لنفسه. فدخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدتها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد، التي أوجبها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالأيمان والنذور، ونحو ذلك.
- ومن البر: الصبر في البأساء أي: الفقر؛ لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره بسبب الفقر، ولهذا يؤمر بالصبر عليها، والاحتساب، ورجاء الثواب من الله عليها.

ومن الصبر المتأكد: الصبر عند الضراء –وهي: المرض على اختلاف أنواعه–، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك؛ لأن النفس تضعف، والبدن يألم،

وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصًا مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر، احتسابًا لثواب الله تعالى.

ومما يؤمر به من الصبر ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي: وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم؛ لأن الجلاد يشق غاية المشقة على النفس، ويجزع الإنسان من القتل، أو الجراح أو الأسر، فاحتيج إلى الصبر في ذلك احتسابًا، ورجاء لثواب الله تعالى الذي منه النصر والمعونة، التي وعدها الصابرين.

فمن عمل بهذه الخصال الجليلة والصفات العظيمة استحق الثناء وعظيم الجزاء؛ لأنه من الصادقين الذين صَدَقوا، وأثبتوا بامتثالهم ما أمروا به صدق إيمانهم، وهو من المتقين بتحقيقه هذه الخصال العظيمة؛ وذلك أن البر الصادق هو بتحقيق تقوى الله فيما يأتي المسلم وما يذر لا بمجرد التوجه إلى بيت المقدس أو غير ذلك من الهيئات أو الأفعال كما قال تعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [سورة البقرة:١٨٩].

ولأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير، تضمنًا ولزومًا ولهذا استحقت أن تكون آية البر.

وهذا يجلي لنا سبب وصف الآية بأنها أجمع آية في البر والتكاليف الشرعية حيث جمعتها ونظمتها في آية واحدة فجمعت الاعتقاد الصحيح، والتهذيب السليم للنفس والمجتمع، وحسن العلاقة بالغير، مع ذكر أهم وجوه البر وأعظم أبواب الخير في كل باب.

وهذه الآية مدنية كما هي سورة البقرة كما تقدم[١].

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآية بمقصد السورة:

تقدم ذكر مقاصد سورة البقرة[٢] والتي من ضمنها: بيان أصول الإيمان وكليات الشريعة، وبعض التكاليف الشرعية إجمالاً وتفصيلاً، وذكر أقسام الناس وبيان الحق الذي يجب اتباعه والأحق من هؤلاء الناس باتباعه[٣].

وهذه الآية لها صلة وثيقة بمقاصد السورة؛ وذلك أن الله ذكر هذه الآية متضمنة لهذه المعاني الجامعة لتكون كالبيان الإجمالي للتشريعات والأصول الدينية والأخلاقية، ثم بعدها شرع في بيان تفاصيل التكاليف كالوصية والقصاص والصيام وغير ذلك.

وهذه المعاني المجموعة في هذه الآية كلها تقرر ما قررته مقاصد السورة، وتجمع وتجمل في بيان البر الحقيقي وخصاله، فالتوحيد وأركان الإسلام في مقدمة تلك الخصال، وكذا تلك الأصول التي بها يصلح الفرد والمجتمع الذي تقوم به دولة الإسلام، من إحسان إلى المحتاج واليتيم وغيرهم، والقيام بحق الله وحق عباده من صلاة وزكاة ونحوها، والوفاء بالعهود والمواثيق وغيرها من معاني جامعة وأصول ومقاصد فائقة.

****

(١) ينظر: صفحة ٢٠.

(٢) ينظر: صفحة ٢١.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير(١/٢٠٤ وما بعدها).

المبحث التاسع: أجمع الآيات في بيان باطل المشركين

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الزخرف:١٥-٢٥].

قال محمد سيد طنطاوي: "المتأمل في هذه الآيات الكريمة، يراها من أجمع الآيات القرآنية التي حكت الأقوال الباطلة التي تفوه بها المشركون، وردت عليهم ردًّا منطقيًّا حكيمًا يهدمها من قواعدها.

لقد ذكرت- أولًا- أنهم جعلوا لله- تعالى- من عباده جزءًا ... ثم ردت عليهم بأنهم جاحدون لنعم الله، وأنهم لو كانوا يعقلون لما حكموا هذا الحكم الذي يدل على جهلهم وغفلتهم، لأنه لو كان الأمر كما ذكروا -على سبيل

الفرض والتقدير- لما اختار- سبحانه- لذاته جنس البنات، وأعطاهم البنين..

ثم ذكرت- ثانيًا-: حالهم عندما يبشرون بالأنثى، وتهكمت بهم حين نسبوا إلى الله مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ والمقصود بذلك جنس البنات، ثم ذكرت- ثالثًا- أنهم حكموا على الملائكة بأنهم إناث، وردت عليهم بأن حكمهم هذا ساقط، لأنهم لم يشهدوا خلقهم حتى يحكموا عليهم هذا الحكم الفاسد، وأنهم سيجازون على أحكامهم التي لا دليل عليها، بما يستحقون من عقاب.

ثم ذكرت- رابعًا- معاذيرهم التي اعتذروا بها عند ما حاصرتهم الحجج الدامغة، فقد قالوا: ﴿الذَّارِيَاتِ الطُّورِ النَّجْمِ الْقَمَرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ فرد- سبحانه- عليهم بقوله: ﴿الْحَدِيدِ الْمُجَادِلَةِ الْحَشْرِ الْمُمْتَحَنَةِ الصَّفِّ الْجُمُعَةِ الْمُنَافِقُونَ التَّغَابُنِ الطَّلَاقِ التَّحْرِيمِ﴾، لأن قولهم هذا ما هو إلا لون من ألوان الاحتيال على الحقيقة بالأقوال الساقطة.

ثم ذكرت- خامسًا- أنهم في إصرارهم على كفرهم لم يستندوا إلى دليل عقلي أو نقلي، وإنما استندوا على شيء واحد هو التقليد لآبائهم في جهلهم وضلالهم..

وهكذا ذكر القرآن أقوالهم وشبهاتهم.. ثم رد عليها بما يدحضها"[1].

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآيات:

افتتح الله هذه السورة العظيمة -سورة الزخرف- بالتنويه بشأن القرآن الكريم وبيان منزلته وعظيم شأنه، وأنه منزل من عنده تبارك وتعالى، ممتنًا على عباده

(١) التفسير الوسيط(٧٢/١٣).

بأن جعله بلسان عربي مبين ومقيمًا للحجة على المشركين من العرب بمجيئه بلسانهم، وبما يعلمون بلاغته، متهددًا لهم بترك إنزال القرآن عليهم إعراضًا عنهم لشركهم وإعراضهم وعنادهم، ثم بين عظيم قدرته وكبير منته بأن خلق السماوات والأرض مسخرة للناس، وأنزل من السماء ماء وسخر الفلك والأنعام في جملة من النعم الدالة على نعمته وقدرته المستلزمة لإلهيته، ومعرّضًا بالمشركين الذين كفروا بربهم مع علمهم بربوبيته وما يستحقه من العبودية والإلهية.

ثم بعد هذه التوطئة شرع في بيان شناعة قول المشركين، واستهانتهم في مقام ربهم حيث زعموا أن لله الواحد الصمد ولدًا، وهو الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له كفوًا أحد، فجعلوا الملائكة إناثًا وقالوا بأنها بنات الله، فهي تشاركه في الألوهية، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، إن من يقول هذا لكفور جحود بين الضلال.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ١٦﴾ أتزعمون أن الله اتخذ من خلقه لنفسه بنات وهي الإناث التي تكرهونها لأنفسكم، وأخلصكم بالذكور الذين ترغبونهم وتحبونهم، إن هذه لقسمة جائرة!

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧﴾ وأنتم الذين نسبتم لله البنات حين يولدن لكم يصير وجه الواحد منكم مسودًا من شدة الغم والحزن، ويظل ممتلئًا غيظًا وكمدًا، فأي قسمة هذه وأي توقير لله رب العالمين!

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨﴾ أي: المرأةُ ناقصةٌ يكمل نقصُها بالزينة بلُبس الحلي منذ طفولتها وإذا خاصمت فلا عبارة لها،

بل هي عاجزة عيية عن البيان لحجتها لأنوثتها أوَ من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله العظيم؟!

﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ أَي: اعْتَقَدُوا فِي الملائكة الذين هم عباد الله أنهم إناث وسموهم بذلك، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ تَعَالَى قَوْلَهُمْ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أي: شاهدوه وحضروه وقد خلقهم الله إناثًا ستكتب الملائكة شهادتهم ويسألون عنها يوم القيامة، ويعاقبون عليها، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد.

﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ وقالوا محتجين بالقدر: لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك فكونه شاء ذلك منا فهذا يدل على رضاه وإقراره لنا. وليس لهم دليل على ما يقولون إن هو إلا الخرص والكذب.

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ثم ينكر عليهم شركهم بلا برهان وحجة: أم أعطيناهم كتابًا من قبل القرآن يخبرهم بصحة أفعالهم من عبادتهم غير الله، وصدق أقوالهم وزعمهم؟ فهم متمسكون به.

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ليس الأمر كذلك، فليس لهم مستند في شركهم إلا احتجاجهم بفعل آبائهم مقلدين لهم: أنهم وجدوهم على ملة ودين من عبادة الأصنام، وأنهم ماضون على آثارهم تلك.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ

ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ وكما كذب هؤلاء، واحتجوا بتقليدهم آباءهم كذب السابقون لهم من الأمم السالفة لرسلهم، فما من رسول من عند الله إلا وكذبه قومه بمثل هذه المقولة فهم سواء.

فهم لا يقصدون اتباع الحق وإنما هو الهوى والتعصب للآباء، ولهذا قال: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ قال لهم رسولهم سائلًا لهم: أتتبعون ما عليه آباءكم ولو جئتكم بأهدى وخير من ملتهم؟ قالوا: إنا بما أرسلت به كافرون، فهذه حقيقة أمرهم، ولهذا انتقم الله من المكذبين فتأمل كيف كانت عاقبتهم حيث كانت نهاية أليمة[1].

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآيات:

هذا المقطع اشتمل على عدة معانٍ جامعة في الرد على أهل الإشراك وبيان شركهم وباطلهم، والكشف عن سوء أدبهم مع ربهم وخالقهم؛ فمن ذلك:

أنهم نسبوا لله الولد تعالى الله عما يقولون، بل زعموا أن الملائكة إناث وأنهم بنات الله فجمعوا بين سوءات كثيرة:

- حيث ادعوا أن الملائكة إناث ولا دليل لهم على ذلك فلم يشهدوا خلقهم ويعاينوه، ولا لهم علم من خبر صادق ولا كتاب هادي وسوف يسألون عن كذبهم، ثم نسبوها لله فزعموا أن الله اتخذ الملائكة التي هي إناث بزعمهم بنات له، وأنها جزء منه تعالى الله، وجمعوا مع ذلك عبادتها مع الله تعالى! ومن سوء أدبهم وشناعة قولهم أنهم نسبوا لله البنات التي هي أضعف في

(١) ينظر: تفسير ابن كثير(٢٢٢/٧)وما بعدها، وتفسير السعدي ص(٧٦٣).

الوصف والصورة وفي المنطق والحجة واصطفوا لأنفسهم البنين الذين هم أكمل وأفضل!

فهم بهذا تجرؤوا على الملائكة، العباد المقربين، ورقوهم عن مرتبة العبادة والذل، إلى مرتبة المشاركة لله، في شيء من خواصه، ثم نزلوا بهم عن مرتبة الذكورية إلى مرتبة الأنوثية، فسبحان من أظهر تناقض من كذب عليه وعاند رسله.

- وبينت الآيات من سوء حالهم أنهم متسخطون على أقدار الله كافرون جاحدون لنعم الله، فإذا رزق أحدهم بالأنثى التي ينسبونها لله يظل وجه أحدهم مسودًا من سوء ما بشر به.
- وتضمنت الآيات بيان احتجاجهم بالقدر والمشيئة على شركهم وكفرهم وهي الحجة الفاسدة التي ما زال يكررها المشركون على مر العصور مع ظهور بطلانها ووضوح تهافتها؛ فزعموا مستدلين بتقدير ذلك عليهم أن الله قد رضي منهم الشرك فهو مشروع لهم، وهذا احتجاج باطل في نفسه عقلًا وشرعًا: حيث لا يقبل عاقل تنزيلها على حال من أحواله العادية، وباطلة شرعًا إذ لا دليل عليه ولكنه الخرص والكذب، فليس لهم كتاب يهتدون به ولا دليل يمسكون به، وقد أبطله الله تعالى وبين فساده وأقام الحجة على عباده.
- بل بينت الآيات أن حجتهم ومتمسكهم الوحيد الفاسد: هو تقليدهم لآبائهم واقتداؤهم بآثارهم المنحرفة، وهي الحجة التي يقابل بها أقوام الرسل لرسلهم حين يدعونهم إلى التوحيد وينكرون عليهم باطلهم وشركهم، وهم

بذلك يبينون عن معارضتهم الحق بالباطل بدون دليل ولا حجة مع وضوح الحق وجلاء الحقيقة التي جاءت بها الرسل.

- ثم يأتي التهديد البليغ بالعقوبة الشديدة كما أهلكت الأمم السابقة المكذبة لرسلها بمثل ما كذب به قومك، وما هي من الظالمين ببعيد.

فهذه الآيات الكريمات جامعة لما يعتقده المشركون ويحتجون به من باطل مع الرد الداحض له والجواب الجلي عن كل ما ذكروه وتشبثوا به، فهي آية محدودة ذكرت غالب حججهم وعقائدهم وأبطلتها.

وهذه الآية مكية في سورة مكية وهي سورة الزخرف[1].

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآية بمقصد السورة:

مقصد هذه السورة بيان صحة القرآن العزيز والاحتجاج له، إظهار مكانة هذه الأمة باعتقادها وتصوراتها الصحيحة، وتقرير العقيدة الصحيحة، وإبطال العقائد الفاسدة من عقائد أهل الإشراك، وبيان فساد التصورات الجاهلية[2].

وعلاقة هذه الآيات العظيمة بهذه المعاني التي جمعتها وقررتها وأوضحتها بمقصد السورة من الوضوح بمكان، فهي قائمة على تقرير الاعتقاد الصحيح وذلك ببيان زيف الباطل الذي يعتقده المشركون من عبادتهم الملائكة وزعمهم فيهم أنهم بنات الله واحتجاجهم على ذلك بالحجج السخيفة والأقوال الباطلة؛ فالآيات تقرر التوحيد الصحيح وتجمع الأدلة الصريحة على تهافت عقيدة المشركين في الله رب العالمين وحقه في العبادة، وفي ملائكة الله المقربين.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير(٢١٨/٧)، والمكي والمدني والسور والآيات للفالح(٢٨٦/٢).

(٢) ينظر: مصاعد النظر(٤٦٦/٢)، والتحرير والتنوير(١٥٨/٢٥)، .

المبحث العاشر: أجمع الآيات في بيان أحوال اليهود وصفاتهم

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [سورة النساء:١٥٣-١٦٢].

قال محمد سيد طنطاوي: "المتأمل في هذه الآيات الكريمة، يراها من أجمع الآيات التي تحدثت عن أحوال اليهود، وعن أخلاقهم السيئة، وعن فنون من رذائلهم وقبائحهم ... فأنت تراها –أولًا– تسجل عليهم أسئلتهم المتعنتة وسوء أدبهم مع الله، وعبادتهم للعجل من بعد أن قامت لديهم الأدلة على أن العبادة لا تكون إلا لله وحده، وعصيانهم لأوامر الله ونواهيه، ونقضهم للعهود والمواثيق، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم قلوبنا غلف، وبهتهم لمريم القانتة العابدة الطاهرة، وقولهم: إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ... إلى غير ذلك من الرذائل التي سجلها الله عليهم.

ثم تراها –ثانيًا– تذكرهم وتذكر الناس جميعًا ببعض مظاهر رحمة الله بهم، وعفوه عنهم، ونعمه عليهم، كما تذكرهم– أيضًا– وتذكر الناس جميعا، ببعض العقوبات التي عاقبهم بها بسبب ظلمهم وبغيهم.

وكأن الآيات الكريمة تقول لهم وللناس إن نعم الله على عباده لا تحصى ورحمته بهم واسعة، فاشكروه على نعمه، وتوبوا إليه من ذنوبكم، فإن الإصرار على المعاصي يؤدى إلى سوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

ثم تراها –ثالثًا– تدافع عن عيسى وأمه مريم دفاعًا عادلًا مقنعًا وتبرئهما مما نسبه أهل الكتاب إليهما من زور وبهتان، وتصريح بأن أهل الكتاب لا حجة عندهم فيما تقولوه على عيسى وعلى أمه مريم، وأنهم في أقوالهم ما يتبعون إلا الظن، وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ثم تسوق الحقيقة التي لا باطل معها في شأن عيسى، بأن تبين بأن الذين زعموا أنهم قتلوه كاذبون مفترون فإنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وسيؤمنون به عند نزوله في آخر الزمان، أو

عند ما يكونون في اللحظات الأخيرة من حياتهم، حين لا ينفع الإيمان.

ثم تراها -رابعًا- لا تعمم في أحكامها، وإنما تحق الحق وتبطل الباطل فهي بعد أن تبين ما عليه اليهود من كفر وظلم وفسوق عن أمر الله، وتتوعدهم بالعذاب الشديد في الآخرة. بعد كل ذلك تمدح الراسخين في العلم منهم مدحًا عظيمًا، وتكرم المؤمنين الصادقين منهم تكريمًا عظيمًا، وتبشرهم بالأجر الجزيل الذي يشرح صدورهم، ويطمئن قلوبهم. ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ"(١).

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآيات

يخبر الله تعالى في هذه الآيات عن أحوال اليهود القبيحة مع أنبيائهم حيث ذكر سلسلة من شناعاتهم المبينة عن حقيقتهم وطبيعة قلوبهم وبعدهم عن ربهم وسوء أدبهم مع رسلهم، فأخبر تعالى عن سؤال اليهود للنبي ﷺ على سبيل التعنت والعناد والاقتراح آيات اشترطوها لحصول الإيمان منهم حيث يتوقف عليها وذلك من جهلهم وظلمهم؛ فسألوه أن يسأل ربه أن ينزل عليهم كتابًا من السماء لجماعتهم، آية معجزة جميع الخلق عن أن يأتوا بمثلها، شاهدة لرسول الله ﷺ بالصدق، آمرة لهم باتباعه.

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد واقتراحهم السافر وبخهم الله وقرعهم حيث قال لنبيه ﷺ: يا محمد، لا يعظمن عليك مسألتهم ذلك، فقد سأل أسلافهم نبيهم ما هو أعظم من ذلك، وذلك حين سألوا موسى رؤية الله عيانا فأخذتهم الصاعقة بسبب ما ارتكبوه وطلبوه؛ لأن ذلك مما لم يكن لهم مسألته، ثم بعد

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي(٣/ ٣٨٩).

أن أحياهم الله خالفوا أمر الله وأمر رسولهم فعبدوا العجل من دون الله تعالى من بعد ما رأوا الآيات الواضحة وعظيم قدرة الله الدالة على وحدانيته وتفرده بالربوبية والعبودية وذلك من جهلهم بالله وجرأتهم عليه واغترارهم بحلمه، ثم تجاوز الله عنهم بعد ذلك. وأعطى الله موسى عليه السلام حجة بينة واضحة على قومه. فلهذا لا يعظم عليك أمرهم يا محمد، فلو أنزلت عليهم الكتاب الذي سألوك أن تنزله عليهم، لخالفوا أمر الله كما خالفوه بعد إحياء الله أوائلهم من صعقتهم.

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ ﴾ يعني: الجبل، وذلك لما امتنعوا من العمل بما في التوراة وقبول ما جاءهم به موسى فيها، ورفع الله على رؤوسهم جبلاً ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم = ﴿ بِمِيثَٰقِهِمْ ﴾ يعني: بما أعطوا الله الميثاق والعهد -تخويفًا لهم وتهديدًا-: لنعملن بما في التوراة ﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ قلنا لهم بعد رفع الجبل: ادخلوا باب بيت المقدس سجدًا قائلين: حطة؛ أي: اللهم حط عنا خطايانا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه حتى تهنا في التيه أربعين سنة، فدخلوا مخالفين في القول والعمل يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حنطة في شعرة.

﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِي ٱلسَّبْتِ ﴾ يعني: وصيناهم بحفظ السبت بأن لا تتجاوزوا فيه ما أبيح لكم إلى ما لم يبح لكم؛ وذلك أنهم أمروا أن لا يأكلوا الحيتان يوم السبت ولا يعرضوا لها، وأحل لهم ما وراء ذلك.

وقوله: ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾ يعني: عهدًا مؤكدًا شديدًا،

بأنهم يعملون بما أمرهم الله به، وينتهون عما نهاهم الله عنه، مما ذكر في هذه الآية، ومما في التوراة، فنقضوا الميثاق والعهد.

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾ وهنا يحكي ربنا تعالى أسباب ما حل بهم من استحقاقهم اللعنة والطرد عن رحمة الله والبعد عن الهدى أنهم نقضوا المواثيق المؤكدة عليهم وخالفوا ما أمروا به، وبسبب كفرهم بآيات الله من الحجج والبراهين والمعجزات التي عاينوها على أيدي أنبيائهم، وبسبب إجرامهم وجرأتهم على قتل الأنبياء حيث قتلوا جمًّا غفيرًا، وبسبب قولهم واعتذارهم عن عدم قبول ما جاء به الرسول بأن قلوبهم في غطاء فلا تعي ما يقول، وليس الأمر كما زعموا بل ختم الله على قلوبهم فلا يؤمنون إلا إيمانًا قليلًا لا ينفعهم.

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾ واستحقوا الطرد من رحمة الله بسبب كفرهم، وبسبب رميهم مريم بنت عمران بالزنى زورًا وبهتاناً.

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ ولعناهم بقولهم: أننا قتلنا عيسى بن مريم متهكمين ساخرين بكونه رسول الله. وما قتلوه كما ادعوا وما صلبوه ولكن قتلوا رجلًا من أتباعه ألقي شبهه عليه وصلبوه، فظنوا أن المقتول عيسى عليه السلام.

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ ﴾ يعني بذلك: من ادعى قتله من اليهود، ومن سلَّمه من جهال النصارى،

كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسعر، فليس لهم به علم، وإنما يتبعون الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا. ولهذا قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ أي: وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين.

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ ولكن رفعه الله حيًّا إلى السماء، وكان الله منيع الجناب لا يرام جنابه، ولا يضام من لاذ ببابه ﴿حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ أي: في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، والسلطان العظيم، والأمر القديم.

﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ وما من أحد من أهل الكتاب إلا سيؤمن بعيسى عليه السلام بعد نزوله في آخر الزمان وقبل موته، ويوم القيامة سيشهد عليهم عيسى عليه السلام بأعمالهم التي شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض، وسيشهد حينئذ بكل قبائحهم وبكفرهم بالله.

﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ وبسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من المخالفات العظيمة حرم الله عليهم طيبات من المآكل كانت حلالًا لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [سورة الأنعام:١٤٦]. وبسبب صدهم أنفسهم وصدهم غيرهم عن سبيل الله وعن اتباع الحق كثيرًا بحيث صار

الصد سجية لهم يتصفون بها.

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ وبسبب تعاملهم بالربا بعد أن نهاهم الله عنه وعن التعامل به، فتناولوه واحتالوا عليه، وبسبب أخذهم أموال الناس بالباطل وبغير حق شرعي، وقد أعد الله للكافرين منهم عذابًا أليمًا.

وبعد أن ذكر صفاتهم الذميمة التي يتصف بها غالبهم استثنى منهم الممدوحين المؤمنين فقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ لكنِ الثابتون في الدين المتمكنون في العلم من اليهود مما أثمر لهم الإيمان الصحيح التام، والمؤمنون يصدقون ويتبعون ما أنزل إليك من القرآن والهدى، وما أنزل من الكتب على الذين من قبلك من الرسل كالتوراة والإنجيل، وهذا الإيمان أثمر العمل الصالح من إقام الصلاة وإعطاء زكاة أموالهم إلى مستحقيها وهما أفضل الأعمال، وقد اشتملتا على كمال الإخلاص للمعبود والإحسان للعبيد، ويصدقون بالله ربًّا إلهًا لا شريك له، ويصدقون بيوم القيامة وما يكون فيه، أولئك المتصفون بهذه الصفات الجليلة من الإيمان والعلم والعمل الصالح سيعطيهم الله ثوابًا عظيمًا[1].

(١) جامع البيان(٣٦١/٩) وما بعدها، وتفسير ابن كثير(٤٤٦/٢) وما بعدها، وتفسير السعدي(٢١٣) وما بعدها.

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآيات:

هذه الآيات الكريمة من أجمع الآيات القرآنية التي تحدثت عن اليهود وذكر شناعاتهم مع ربهم وخالقهم، وسوء تعاملهم وأدبهم مع أنبيائهم وتكذيبهم لهم، وهي مع وجازتها جاءت على كثير من هذه الخصال وأشارت إليها بأسلوب بديع وإيجاز بليغ، مذكرة ببعض ما ذكر في آيات أخرى في مواضع كثيرة من القرآن، والغرض الإشارة إلى شيء من رذائلهم التي هي أشد مما ذكره للنبي ﷺ واقترحوه عليه.

-فقد ابتدأ الله تعالى بذكر سؤالهم النبي ﷺ واقتراحهم عليه على سبيل التعنت مشترطين ذلك لحصول إيمانهم؛ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء لجماعتهم يصدقه ويأمرهم باتباعه، وهذا في غاية القبح وسوء الأدب وأعظم الجهل والظلم؛ وذلك أنهم يعلمون أن النبي ﷺ بشر عبد لله ليس له من الأمر شيء وإنما الأمر كله لله، وأيضًا فلا يصح أن يكون ذلك هو شرط التصديق بالنبي ﷺ فمن أين لهم ذلك؟!

-فلما ذكر اعتراضهم الفاسد واقتراحهم الباطل أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوه مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به. فذكر عدة مساوئ هي أشد وأعظم وفيها أظهر دلالة على منهجهم وطريقتهم في مواجهة الحق، فمن ذلك: سؤال أسلافهم موسى عليه السلام رؤية الله عيانًا، وهذا من أعظم الجهل، وذلك ما أخبر الله عنهم في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة البقرة:٥٥-٥٧].

ومن ذلك أيضًا: أشارت الآيات إلى قصة عبادتهم العجل وذلك بعد ذهاب موسى عليه السلام لمناجاة ربه ثم لما رجع وكان ما كان، جعل الله توبتهم من الذي صنعوه وابتدعوه: أن يقتل من لم يعبد العجل منهم من عبدَه، فجعل يقتل بعضهم بعضًا ثم أحياهم الله، عز وجل، فقال الله عز وجل: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ وقد ذكر الله قصتهم مبسوطة في سورة البقرة والأعراف وطه، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۖ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [سورة طه:٨٣-٩١]. وهذا إثم كبير وذنب عظيم يحصل منهم بحضور

نبيهم وقرب عهدهم بآيات عظام!

ومن ذلك: امتناعهم من قبول أحكام كتابهم وهو التوراة حين جاءهم بها موسى عليه السلام من عند الله فتثاقلوها، حتى رفع الطور فوق رءوسهم وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم، فقبلوا ذلك على وجه الإغماض والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري. كما قال تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٧١].

ومنها أيضًا: امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجدًا مستغفرين، فخالفوا القول والفعل كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٦١-١٦٢].

ومما ذكره الله عنهم في هذه الآيات: اعتداؤهم في السبت بصيد الحيتان بعد نهيهم عنها وأخذ الميثاق الغليظ عليهم بعدم المخالفة، فما كان منهم إلا أن تحايلوا واعتدوا فعاقبهم الله العقوبة الشديدة جزاء مكرهم وخبثهم ومخالفتهم عهد الله وميثاقه، كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ۘ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا

كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ [سورة الأعراف:١٦٣-١٦٦].

ومما ذكر أيضًا: أنهم قوم بهت وأصحاب نقض للمواثيق والعهود حيث نقضوا الميثاق الغليظ الذي أخذ عليهم فلم يرعوا حق الله فنقضوا وكفروا بآيات الله.

وذكر الله عنهم أنهم قتلة الأنبياء حيث قتلوا جما غفيرًا منهم كما قال عنهم: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة البقرة:٦١].

وأشارت الآيات إلى كذبهم وصدهم عن سبيل الله وردهم الحق والإعراض عنه حيث كانوا يقولون: قلوبنا غلف. وليس الأمر كما يقولون ولكن طبع الله عليها بسبب كفرهم.

ومن شنائعهم التي أشارت إليها الآيات قولهم العظيم وبهتانهم الكبير لمريم بنت عمران بأنها: زانية! وقد رموها وابنها بالعظائم.

ومن ذلك أيضًا: أنهم حاولوا جاهدين في الإيقاع بعيسى ابن مريم عليه السلام

وأذيته والسعي في قتله حتى إنهم مكروا به وبمن معه فأنجاه الله منهم بأن ألقى شبهه على رجل من أصحابه فقتلوه وصلبوه ظانين أنه هو، ورفعه الله تعالى إلى السماء لينزل في آخر الزمان يقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ويقتل الدجال، وعند ذلك يؤمن به أهل الكتاب ويشهد عليهم بأعمالهم.

ومما ذكر الله تعالى عنهم: أنه حرم عليهم بسبب ظلمهم طيبات كانت أحلت لهم وبسبب صدهم عن سبيل الله كثيرًا صدًّا لأنفسهم وصدًّا لغيرهم حتى كان الصد سجية لهم. ومما حرمه الله عليهم ما ذكره في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [سورة الأنعام:١٤٦]

وذكر الله عنهم أنهم قوم لا يتنزهون عن الربا بل يأخذونه مع تحريمه عليهم، وأنهم أكلة لأموال الناس بالباطل والظلم والبغي. وقد توعدهم الله حيث أعد للكافرين منهم عذابا أليما موجعا.

وبعد هذه القبائح والرزايا من يهود إلا أن منهم قومًا قليلًا يستحقون الثناء عليهم فهم راسخون في العلم ثابتون على الإيمان والعمل الصالح، فقد آمنوا وصدقوا بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم، وصدقوا بما أنزل على الذين من قبله من الرسل كالتوراة والإنجيل، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويصدقون بالله ربًّا إلهًا واحدًا لا شريك له، ويصدقون بيوم القيامة، وقد وعدهم الله أن يثيبهم ثوابًا جزيلًا عظيمًا.

فصارت بحق أجمع آيات في بيان أحوال اليهود وصفاتهم حيث تضمنت

هذه الآيات القليلة جملة كثيرة من صفاتهم وقبائحهم وبينتها بجلاء حيث حوت أكثر من خمسة عشر صفة ورزية، مع إنصاف وعدل حيث ختمت بالتنويه بالصالحين منهم وذكر جزائهم.

وهذه الآيات مدنية في سورة مدنية وهو سورة النساء[1].

(١) ينظر: تفسير ابن كثير(٢٠٤/٢)، وبصائر ذوي التمييز(١٦٩/١)، ومصاعد النظر(٨٦/٢) وقد حكيا الإجماع عليه.

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآيات بمقصد السورة:

سورة النساء من السور المدنية والتي يبرز فيها ملامح السور المدنية، فهي قائمة على تنظيم الدولة الإسلامية من خلال ذكر المبادئ والأصول والأحكام المتعلقة ببناء الأسرة ثم المجتمع فالدولة الإسلامية(١).

وهذه الآيات جمعت معاني عظيمة كلها تصب في بناء المجتمع الإسلامي ودولة الإسلام؛ وذلك أن بيان حال اليهود المخالطين للمسلمين في المدينة بحكم مجاورتهم لهم من الأهمية بمكان لكشف سترهم لئلا يغتر بهم مغتر من ضعاف الإيمان والعلم والاعتقاد، وليقوى المسلمون عليهم، ولتستبين سبيل المجرمين، فمعرفة حالهم وكشفها جزء من النصر وسبيل إلى التمكين، وبيان حالهم تضمن كشف عقيدتهم الفاسدة في ربهم تبارك وتعالى ومع أنبيائهم ولا سيما موسى وعيسى عليهما السلام، ومع غيرهم فاليهود قتلة الأنبياء فلا تؤمن غائلتهم فضلًا عن غير الأنبياء، ومن ذلك بيان حقيقة أخلاقهم وتعاملاتهم المالية وغيرها، فهم أهل التعاملات الربوية وهم قوم أصحاب أكل لأموال الناس بالباطل فهم لا يُؤمَنون على دين ولا على مال ولا على نفس، وغير ذلك مما تضمنته الآيات الكريمة فوجه الارتباط وثيق.

****

(١) ينظر: التحرير والتنوير(٤/٢١٤)، والمكي والمدني من الآيات والسور لعبدالرزاق حسين أحمد(١/٣٩٩).

المبحث الحادي عشر: من أجمع الآيات في أحكام الحج وآدابه

قال الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ [سورة البقرة:١٩٦].

قال محمد سيد طنطاوي: "تعتبر هذه الآية الكريمة من أجمع الآيات التي وردت في القرآن الكريم مبينة ما يتعلق بأحكام الحج وآدابه".

المطلب الأول: المعنى الإجمالي للآية:

لما ذكر تعالى أحكام الصيام وعطف بذكر الجهاد، شرع في بيان المناسك، فأمر بإتمام الحج والعمرة، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما؛ ولهذا قال بعده: ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ ﴾ أي: صددتم عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمامهما. فالله تعالى أمر من شرع ودخل في نسكي الحج والعمرة بأدائهما تامين، مبتغين بذلك وجه الله.

﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ ﴾ فإذا منعتم من إتمامهما بأي نوع من أنواع الحصر كالمرض أو العدو أو غيره؛ فاذبحوا ما يتيسر من الهدي، وهو سبع بدنة، أو سبع بقرة، أو شاة يذبحها المحصر، ويحلق ويحل من إحرامه بسبب

الحصر.

﴿ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ ﴾ وهذا معطوف على ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ ولا تحلقوا رؤوسكم أو تقصروها حتى يبلغ الهدي الموضع الذي يحل فيه ذبحه، فإن كانوا منعوا دخول الحرم ذبحوا حيث منعوا وإلا فليذبحوا في الحرم وهو موضع حله يوم النحر وما بعده من أيام التشريق.

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ فمن كان من الحجاج مريضًا، أو به أذى من مرض، ينتفع بحلق رأسه، أو قروح، أو قمل ونحو ذلك فحلق رأسه بسبب ذلك فلا حرج عليه، وعليه فدية بصيام ثلاثة أيام، أو صدقة بإطعام ستة مساكين من مساكين الحرم أو بذبح شاة توزع على فقراء الحرم مما يجزئ في أضحية، وهو مخير، والنسك أفضل، فالصدقة، فالصيام.

فإذا قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره، فمن استمتع بأداء العمرة في أشهر الحج، وانتفع بتمتعه بما حرم عليه من محظورات الإحرام بعد الفراغ منها إلى أن يحرم بالحج من عامه؛ فعليه ما تيسر من الهدي، وهو ما يجزئ في أضحية، وهذا دم نسك، مقابلة لحصول النسكين له في سفرة واحدة، ولإنعام

الله عليه بحصول الانتفاع بالمتعة بعد فراغ العمرة، وقبل الشروع في الحج، ومثلها القِران لحصول النسكين له.

فَمَنْ لَمْ يَجِد الهدي أو ثمنه فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج، ويكون أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة، وآخرها أيام التشريق، ولكن الأفضل منها، أن يصوم السابع، والثامن، والتاسع، وَسَبْعَةٍ منها إِذَا رَجَعْتُمْ أي: فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة، وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله، ليكون مجموعها عشرة أيام كاملة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من التمتع ووجوب الهدي عليه أو الصيام للعاجز عنه ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فهو لغير أهل الحرم ومن يقيم قريبًا منه، فهذا الذي يجب عليه الهدي، لحصول النسكين له في سفر واحد، وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام، فليس عليه هدي لعدم الموجب لذلك حيث يكفيهم مطلق الطواف عن التمتع بالعمرة إلى الحج.

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي: في جميع أموركم، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ومن ذلك امتثالكم لهذه المأمورات، واجتناب هذه المحظورات المذكورة في هذه الآية.

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ أي: لمن عصاه، وهذا هو الموجب للتقوى، فإن من خاف عقاب الله انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى الثواب، وأما من لم يخف العقاب، ولم يرج

الثواب، اقتحم المحارم، وتجرأ على ترك الواجبات[1].

المطلب الثاني: المعاني التي جمعتها الآية:

في هذه الآية الجامعة ذكر الله عدة أحكام من أحكام المناسك حيث ابتدأ الله تعالى بذكر حكم مهم مترتب على الشروع في الحج والعمرة وهو وجوب إتمامهما ولو كانا نفلاً فلا يجوز فسخهما وانتقاضهما أو التحلل منهما قبل الإتمام إلا بما استثناه الله وهو الحصر، ومما يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ وجوب الإخلاص فيهما لله تعالى، وإتقانهما وإحسانهما وهو قدر زائد على فعل ما يلزم لهما.

ومما نصت عليه الآية الكريمة: حكم المحصر، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ فمن منع من الحرم لأي عارض فله التحلل بعد أن يذبح ما استيسر من الهدي، ولا يحلق حتى يبلغ الهدي المكان الذي يحل فيه ذبحه فإن كان منع من الحرم فحيث منع وإلا ففي الحرم في يوم النحر وأيام التشريق.

قال ابن كثير: "ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست، أي: عام الحديبية، حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت، وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكمالها، وأنزل لهم رخصة: أن يذبحوا ما معهم من الهدي وكان سبعين بدنة، وأن يتحللوا من إحرامهم، فعند ذلك أمرهم عليه السلام بأن يحلقوا رؤوسهم ويتحللوا. فلم يفعلوا انتظارا للنسخ حتى خرج فحلق رأسه، ففعل الناس

(١) ينظر: تفسير ابن كثير(٥٣٠/١ وما بعدها)، وتفسير السعدي ص(٩٠).

وكان منهم من قصر رأسه ولم يحلقه، فلذلك قال ﷺ: "رحم الله المحلقين". قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ فقال في الثالثة: "والمقصرين"(١). وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك، كل سبعة في بدنة، وكانوا ألفا وأربعمائة، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم، وقيل: بل كانوا على طرف الحرم، فالله أعلم"(٢).

ومما دلت عليه الآية: عدم جواز حلق الرأس وأنه من محظورات الإحرام، ويلحق به بقية الشعر بحلق أو غيره، لأن المعنى واحد من الرأس، أو من البدن؛ لأن المقصود من ذلك حصول الشعث والمنع من الترفه بإزالته، وهو موجود في بقية الشعر، ويستمر المنع مما ذكر حتى يبلغ الهدي محله وهو يوم النحر، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر كما تدل عليه الآية(٣).

ودلت الآية أيضًا: على أن من كان محرما بحج أو عمرة ثم مرض أو تأذى رأسه بسبب شعره من قمل أو نحوه فإن له أن يحلق شعره ويفدي عن ذلك فدية بصيام ثلاثة أيام أو بإطعام ستة مساكين من مساكين الحرم أو بذبح شاة توزع على فقراء الحرم، وقد نزلت الآية بسبب ما وقع لكعب بن عجرة ﷺ من الأذى في رأسه كما أخرج البخاري ومسلم عن كعب بن عجرة قال: وقف علي رسول الله ﷺ بالحديبية ورأسي يتهافت قملا، فقال: «يؤذيك هوامك؟»، قلت: نعم، قال: " فاحلق رأسك، أو – قال: احلق – "، قال: نزلت هذه الآية ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ﴾ إلى آخرها، فقال النبي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه(٩٤٥/٢) ح(١٣٠١)-كتاب الحج-باب تفضيل الحلق على التقصير.
(٢) تفسير ابن كثير(٥٣٢/١).
(٣) ينظر: تفسير السعدي(٩٠).

ﷺ: «صم ثلاثة أيام، أو تصدق بفرق بين ستة، أو انسك بما تيسر»[1]. فإذا حصل الضرر فلا حرج عليه أن يحلق رأسه، ويفدي بما ذكر على التخيير، والنسك أفضل، فالصدقة، فالصيام.

ودلت الآية على أن الإنسان إذا كان في أمان من العدو ونحوه مما يمنعه من الحرم، فقدر على دخوله غير خائف، وتمتع بأن اعتمر عمرة متوصلًا بها إلى الحج في سفرة واحدة، وانتفع بتمتعه بعد الفراغ منها بأن حلت له محظورات الإحرام إلى أن يحرم بالحج من عامه، فعليه ما تيسر من الهدي، وهو ما يجزئ في أضحية، وهذا دم نسك، مقابلة لحصول النسكين له في سفرة واحدة، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالمتعة بعد فراغ العمرة، وقبل الشروع في الحج، ومثلها القِران لحصول النسكين له.

ويدل مفهوم الآية على أن المفرد للحج ليس عليه هدي، ودلت الآية على جواز بل فضيلة المتعة، وعلى جواز فعلها في أشهر الحج[2].

وأما من لم يجد الهدي أو ثمنه فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج ويجوز أن يصومها بعد إحرامه إلى أيام التشريق، ولكن الأفضل منها أن يصوم السابع، والثامن، والتاسع، وسبعة إذا رجع إلى أهله أي: بفراغه من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة، وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله.

والتمتع ووجوب الهدي فيه إنما يكون للآفاقي الذي ليس من أهل الحرم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه(١٠/٣) ح(١٨١٥) كتاب الحج-أبواب المحصر-باب قول الله{أو صدقة} وهي إطعام ستة مساكين، ومسلم في صحيحه(٨٦٠/٢) ح(١٢٠١) كتاب الحج-باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى..

(٢) ينظر: تفسير السعدي(٩٠).

ولا قريبًا منه لحصول النسكين له في سفر واحد، وأما من كان من أهل الحرم فلا حاجة له إلى التمتع لأنه يطوف بالبيت في كل وقت أراد.

وهذه الآية كما قال طنطاوي هي بحق من أجمع الآيات في أحكام الحج حيث اشتملت على جملة كثيرة من أحكامه في آية واحدة فصارت أصلًا في بابه ومرجعا في أحكامه.

وهذه الآية مدنية في سورة مدنية اتفاقًا وهي سورة البقرة كما مر[1].

المطلب الثالث: علاقة المعاني التي جمعتها الآية بمقصد السورة:

تقدم معنا أن من المقاصد العظيمة في هذه السورة الكريمة بناء المجتمع المسلم القائم بالشريعة وبالإسلام كله حيث ذكرت الأصول الكبرى في الدين، وكذلك ذكرت تفاصيل بعض التكاليف الشرعية والتي منها تفاصيل الركن الخامس من أركان الإسلام وهو حج بيت الله الحرام.

وعلاقة هذه المعاني بمقصد السورة وثيقة حيث إن هذه التفاصيل في أحكام الحج هي جزء من المقصد الكبير في هذه السورة الذي هو بيان التكاليف الشرعية التفصيلية، والحج ركن عظيم من أركان الإسلام وأحكامه من الأهمية بمكان أن يتعرف عليها المسلم فذكرت في سورة من القرآن تفاصيل كثيرة حتى يتجلى حكمها فلا يقع الخلاف، ويتلافى الخطأ الذي قد يقع ممن وفد على البيت الحرام بحج أو عمرة.

****

(١) ينظر: ص٣٦

الخاتمة وأبرز النتائج والتوصيات

وبعد؛ فإن من نعمة الله علي أن تم هذا البحث، وأسأله تبارك تعالى أن يرزقني الإخلاص والقبول والتوفيق لما يحب ويرضى، وبعد هذا التطواف في هذا البحث يتجلى لنا عدة نتائج من أهمها:

- بالبحث في تفاسير المفسرين ظهرت عنايتهم بكتاب الله تعالى تدبرًا وفهمًا وتأملًا وحرصًا على إبراز نتائج فكرهم وحصيلة فهمهم فكانوا يستخرجون خلاصات نافعة منها أنهم ينصون على أوصاف لبعض الآيات التي تميزت بصفات معينة بحسب موضوعاتها كأجمع الآيات القرآنية الذي نحن بصدد جمعه وبحثه، وقد خرجت لي نتيجة مهمة: أن بعض المفسرين تميزوا عن غيرهم بذلك من عهد الصحابة ﷺ إلى زماننا؛ فمنهم ابن مسعود ﷺ حيث أثر عنه أثران في هذا البحث، وكذا جعفر الصادق وله نموذج واحد، ومنهم محمد رشيد رضا وله نموذج واحد أيضًا، ومثله أبو زهرة، وكذا وهبة الزحيلي كلهم على نموذج واحد، وأما محمد سيد طنطاوي فله خمسة نماذج.
- تعدد موضوعات الآيات القرآنية الموصوفة بأنها أجمع آية في موضوع معين؛ فجاء في باب الاعتقاد والتوحيد مبحثان، وفي الرد على المخالفين من المشركين وأهل الكتاب مبحثان أيضًا، وفي بيان الخير والشر مبحث واحد، وفي الحث على الخير والتحذير من الشر مبحث واحد، وفي بيان المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله مبحث واحد، وفي بيان التكاليف الشرعية والآداب المرعية مبحث واحد، وفي الحض على الإنفاق في سبيل الله مبحث

واحد، وفي الترغيب في الأعمال الصالحة مبحث واحد، وفي بيان أحكام الحج مبحث واحد.

ومما يمكن التوصية به:

- العناية بهذه الأوصاف التي يطلقها هؤلاء الأئمة الأعلام ودراسة الآيات الموصوفة بذلك لأنها نتائج مهمة من علماء بكتاب الله حصيلة تدبر وإعمال فكر عميق مع سعة في العلم وحرص على العمل فلأقوالهم مكانة مهمة ومنزلة رفيعة.
- جمع ودارسة الأوصاف التي يصف بها المفسرون بعض الآيات القرآنية كأرجى آية وأخوف آية ونحو ذلك.

هذا، والله أسأل التوفيق لكل خير لي وللقارئ الكريم ولجميع المسلمين، وما كان في هذا البحث من صواب فمن الله وحده وما كان من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان أعاذنا الله منه وجميع المسلمين.

فهرس المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤/ ١٩٧٤م

٢- الاستيعاب في بيان الأسباب، سليم بن عيد الهلالي ومحمد بن موسى آل نصر، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ

٣- أنوار التنْزيل وأسرار التأويل. لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٨هـ.

٤- البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، المحقق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨ م.

٥- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٩٣، ١٤١٢، ١٤١٦.

٦- تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (تـه٣١٠)، دار التراث — بيروت، الطبعة: الثانية ١٣٨٧.

٧- التحرير والتنوير. لمحمد الطاهر ابن عاشور التونسي، دار سحنون للنشر والتوزيع.

٨- تفسير الحجرات — الحديد، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ ٢٠٠٤ - هـ م.

٩- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ) الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة النشر: ١٩٩٠ م.
١٠- تفسير القرآن العظيم. لإسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط.الثانية ١٤٢٠هـ .
١١- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة : الثانية ، ١٤١٨ هـ.
١٢- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لمحمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى. ١٩٩٧
١٣- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين المزي (المتوفى: ٧٤٢هـ)، المحقق: د. بشار عواد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠ – ١٩٨٠.
١٤- تيسير التفسير، لإبراهيم القطان(المتوفى: ١٤٠٤هـ)، ترقيم الشاملة الآلي.
١٥- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن ابن معلا المطيري، قدم له: عبد الله بن عقيل، ومحمد بن صالح العثيمين، مؤسسة الرسالة، ط.الأولى، ١٤٢١هـ.
١٦- جامع البيان في تأويل القرآن. لمحمد بن جرير الطبري، حققه: محمود محمد شاكر، وخرج أحاديثه: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط. الأولى، ١٤٢٠هـ.
١٧- الدر المنثور، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت.

١٨- زهرة التفاسير، لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ه١٣٩٤)، دار النشر: دار الفكر العربي.
١٩- سنن الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني (المتوفى: ه٣٨٥)، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الارنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ ٢٠٠٤ - ه م
٢٠- شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، يوسف بن محمد علي الغفيص، مرقم آليا للشاملة.
٢١- صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ه٢٥٦)، حقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ ١٩٩٧ - ه م
٢٢- صحيح البخاري.لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (مطبوع ضمن الكتب الستة) إشراف ومراجعة: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، ط.الأولى، ه١٤٢٠.
٢٣- صحيح مسلم. للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تشرف بخدمته والعناية به: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار قرطبة، ط الثانية، ه١٤٣٠.
٢٤- الطيوريات، انتخاب: صدر الدين، أبو طاهر السِّلَفي أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سِلَفَه الأصبهاني (المتوفى: ه٥٧٦)، من أصول: أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي الطيوري (المتوفى: ه٥٠٠)، دراسة وتحقيق: دسمان

يحيى معالي، عباس صخر الحسن، الناشر: مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ ٢٠٠٤ - هـ م.
٢٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.
٢٦- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الكتاب العربي، ط.الأولى، ١٤٢١هـ .
٢٧- الكشاف عن حقائق التنْزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار المعرفة، توزيع: دار الباز .
٢٨- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: الرحالة الفاروق وزملائه، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر. دار الخير، ط.الثانية، ١٤٢٨هـ.
٢٩- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي — بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦
٣٠- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، الناشر: دار الكتب العلمية — بيروت.

٣١- مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي البقاعي(ت ٨٨٥هـ)، مكتبة المعارف – الرياض، الطبعة: الأولى ١٤٠٨.

٣٢- المكي والمدني من الآيات والسور من أول القرآن الكريم إلى نهاية سورة الإسراء، دراسة تأصيلية نقدية للسور والآيات، عبدالرزاق حسين أحمد، دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤٢٠

٣٣- المكي والمدني من الآيات والسور من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس، د. محمد الفالح، دار التدمرية، جمعية تبيان، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ

٣٤- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد بن عبد الله دراز(ت ١٣٧٧هـ)، الناشر: دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة : طبعة مزيدة ومحققة ١٤٢٦هـ.

٣٥- نَقْضُ الإِمَامِ أَبِي سَعِيدٍ عُثْمَانَ بْنِ سَعِيدٍ عَلَى المَرِيْسِيّ الْجَهْمِيّ العَنِيدِ فِيْمَا افْتَرَىَ عَلَى اللهِ -ﷻ- مِنَ التَّوْحِيدِ، أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني (المتوفى: ٢٨٠ هـ)، المحقق: أَبُو عَاصِم الشَّوَامِيُّ الأَثَرِي، الناشر: المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ ٢٠١٢ - هـ م

fhrs AlmSAdr wAlmrAjç

1- AlĂtqAn fy çlwm AlqrĀn‹ çbd AlrHmn bn Âby bkr‹ jlAl Aldyn AlsywTy (AlmtwfŶ: 911h)‹ AlmHqq: mHmd Âbw AlfDl ĂbrAhym‹ AlnAŝr: AlhyŶh AlmSryh AlçAmh llktAb‹ AlTbçh: 1394/ 1974m

2- AlAstyçAb fy byAn AlÂsbAb‹ slym bn çyd AlhlAly wmHmd bn mwsŶ Āl nSr‹ dAr Abn Aljwzy llnŝr wAltwzyç‹ Almmlkh Alçrbyh Alsçwdyh‹ AlTbçh: AlÂwlŶ‹ 1425 h

3- ÂnwAr Altnżyl wÂsrAr AltÂwyl. lnASr Aldyn Âby sçyd çbd Allh bn çmr bn mHmd AlŝyrAzy AlbyDAwy‹ dAr Alktb Alçlmyh‹ AlTbçh AlÂwlŶ‹ snh 1408ھ.

4- AlbdAyh wAlnhAyh‹ Âbw AlfdA' ĂsmAçyl bn çmr bn kθyr Aldmŝqy‹ AlmHqq: çly ŝyry‹ AlnAŝr: dAr ĂHyA' AltrAθ Alçrby‹ AlTbçh: AlÂwlŶ 1408h‹ 1988 m.

5- bSAŶr ðwy Altmyyz fy lTAŶf AlktAb Alçzyz‹ lmjd Aldyn Âbw TAhr mHmd bn yçqwb AlfyrwzĀbAdŶ (AlmtwfŶ: 817h)‹ tHqyq: mHmd çly AlnjAr‹ AlnAŝr: Almjls AlÂçlŶ llŝŶwn AlĂslAmyh - ljnh ĂHyA' AltrAθ AlĂslAmy‹ AlqAhrh‹ 1393‹ 1412‹ 1416.

6- tAryx Alrsl wAlmlwk‹ mHmd bn jryr bn yzyd bn kθyr bn γAlb AlĀmly‹ Âbw jçfr AlTbry (t310ç)‹ dAr AltrAθ – byrwt‹ AlTbçh: AlθAnyh 1387.

7- AltHryr wAltnwyr. lmHmd AlTAhr Abn çAŝwr Altwnsy‹ dAr sHnwn llnŝr wAltwzyç.

8- tfsyr AlHjrAt – AlHdyd‹ mHmd bn SAlH bn mHmd Alçθymyn‹ dAr AlθryA llnŝr wAltwzyç‹ AlryAD‹ AlTbçh: AlÂwlŶ‹ 1425 ç - 2004 m.

9- tfsyr AlqrĀn AlHkym (tfsyr AlmnAr)‹ mHmd rŝyd bn çly rDA AlHsyny (AlmtwfŶ: 1354ç) AlnAŝr: AlhyŶh AlmSryh AlçAmh llktAb snh Alnŝr: 1990 m.

10- tfsyr AlqrĀn AlçĎym. lĂsmAçyl bn kθyr Alqrŝy Aldmŝqy‹ tHqyq: sAmy slAmh‹ dAr Tybh llnŝr wAltwzyç‹ T.AlθAnyh 1420ç .

11- Altfsyr Almnyr fy Alçqydh wAlŝryçh wAlmnhj‹ d whbh bn mSTfŶ AlzHyly‹ dAr Alfkr AlmçASr – dmŝq‹ AlTbçh : AlθAnyh ‹ 1418 ç.

12- Altfsyr AlwsyT llqrĀn Alkrym، lmHmd syd TnTAwy، AlnAŝr: dAr nhDħ mSr llTbAçħ wAlnŝr wAltwzyç، AlfjAlħ – AlqAhrħ، AlTbçħ: AlÂwlŶ. 1997
13- thðyb AlkmAl fy ÂsmA' AlrjAl، ywsf bn çbd AlrHmn bn ywsf، Âbw AlHjAj، jmAl Aldyn Almzy (AlmtwfŶ: 742ç)، AlmHqq: d. bŝAr çwAd mçrwf، AlnAŝr: mŵssħ AlrsAlħ – byrwt، AlTbçħ: AlÂwlŶ، 1400 – 1980.
14- tysyr Altfsyr، lĂbrAhym AlqTAn(AlmtwfŶ: 1404ç)، trqym AlŝAmlħ AlĀly.
15- tysyr Alkrym AlrHmn fy tfsyr klAm AlmnAn. lçbd AlrHmn bn nASr Alsçdy، tHqyq: çbd AlrHmn Abn mçlA AlmTyry، qdm lh: çbd Allh bn çqyl، wmHmd bn SAlH Alçθymyn، mŵssħ AlrsAlħ، T.AlÂwlŶ، 1421ھ.
16- jAmç AlbyAn fy tÂwyl AlqrĀn. lmHmd bn jryr AlTbry، Hqqh: mHmwd mHmd ŝAkr، wxrj ÂHAdyθh: ÂHmd mHmd ŝAkr، mŵssħ AlrsAlħ، T. AlÂwlŶ، 1420ç.
17- Aldr Almnθwr، lçbd AlrHmn bn Âby bkr، jlAl Aldyn AlsywTy (AlmtwfŶ: 911ç)، AlnAŝr: dAr Alfkr – byrwt.
18- zhrħ AltfAsyr، lmHmd bn ÂHmd bn mSTfŶ bn ÂHmd Almçrwf bÂby zhrħ (AlmtwfŶ: 1394ç)، dAr Alnŝr: dAr Alfkr Alçrby.
19- snn AldArqTny، Âbw AlHsn çly bn çmr AldArqTny (AlmtwfŶ: 385ç)، Hqqh wDbT nSh wçlq çlyh: ŝçyb AlArnŵwT، Hsn çbd Almnçm ŝlby، çbd AllTyf Hrz Allh، ÂHmd brhwm، AlnAŝr: mŵssħ AlrsAlħ، byrwt – lbnAn، AlTbçħ: AlÂwlŶ، 1424 ç - 2004 m
20- ŝrH Alçqydħ AlwAsTyħ lAbn tymyħ، ywsf bn mHmd çly AlγfyS، mrqm ĀlyA llŝAmlħ.
21- SHyH AlÂdb Almfrd llĂmAm AlbxAry، lmHmd bn ĂsmAçyl bn ĂbrAhym bn Almγyrħ AlbxAry، Âbw çbd Allh (AlmtwfŶ: 256ç)، Hqq: mHmd nASr Aldyn AlÂlbAny، AlnAŝr: dAr AlSdyq llnŝr wAltwzyç، AlTbçħ: AlrAbçħ، 1418 ç - 1997 m
22- SHyH AlbxAry.lÂby çbd Allh mHmd bn ĂsmAçyl AlbxAry (mTbwç Dmn Alktb Alstħ) ĂŝrAf wmrAjçħ: SAlH bn çbd Alçzyz Āl Alŝyx، T.AlÂwlŶ، 1420ç.

23- SHyH mslm. llĂmAm Âby AlHsyn mslm bn AlHjAj Alqŝyry AlnysAbwry، tŝrf bxdmth wAlςnAyħ bh: Âbw qtybħ nĎr mHmd AlfAryAby، dAr qrTbħ، T AlθAnyħ، 1430ç.
24- AlTywryAt، AntxAb: Sdr Aldyn، Âbw TAhr Alsİf̄y ÂHmd bn mHmd bn ÂHmd bn mHmd bn ĂbrAhym slf̄ħ AlÂSbhAny (AlmtwfŶ: 576ç)، mn ÂSwl: Âbw AlHsyn AlmbArk bn ςbd AljbAr AlSyrfy AlTywry (AlmtwfŶ: 500ç)، drAsħ wtHqyq: dsmAn yHyŶ mςAly، ςbAs Sxr AlHsn، AlnAŝr: mktbħ ÂDwA' Alslf، AlryAD، AlTbςħ: AlÂwlŶ، 1425 ç - 2004 m.
25- ftH AlbAry ŝrH SHyH AlbxAry، lÂHmd bn ςly bn Hjr Âbw AlfDl Alςsqlany Alŝafςy، AlnAŝr: dAr Almςrfħ - byrwt، 1379.
26- ftH Alqdyr AljAmς byn fny AlrwAyħ wAldrAyħ mn ςlm Altfsyr. lmHmd bn ςly bn mHmd Alŝwkany، dAr AlktAb Alςrby، T.AlÂwlŶ، 1421ç .
27- Alkŝaf ςn HqAŶq Altnzyl wςywn AlÂqAwyl fy wjwh AltÂwyl. lÂby AlqAsm mHmwd bn ςmr Alzmxŝry AlxwArzmy، dAr Almςrfħ، twzyς: dAr AlbAz .
28- AlmHrr Alwjyz fy tfsyr AlktAb Alςzyz. lÂby mHmd ςbd AlHq bn γAlb bn ςTyħ AlÂndlsy، tHqyq: AlrHAlħ AlfArwq wzmlAŶh، wzArħ AlÂwqAf wAlŝŵwn AlĂslAmyħ bdwlħ qTr. dAr Alxyr، T.AlθAnyħ، 1428ه.
29- mdArj AlsAlkyn byn mnAzl ĂyAk nςbd wĂyAk nstςyn، mHmd bn Âby bkr bn Âywb bn sςd ŝms Aldyn Abn qym Aljwzyħ (AlmtwfŶ: 751ç)، AlmHqq: mHmd AlmςtSm bAllh AlbγdAdy، AlnAŝr: dAr AlktAb Alςrby – byrwt، AlTbςħ: AlθAlθħ، 1416
30- Almstdrk ςlŶ AlSHyHyn، Âbw ςbd Allh AlHAkm mHmd bn ςbd Allh bn mHmd bn Hmdwyh bn nςym bn AlHkm AlDby AlThmAny AlnysAbwry Almςrwf bAbn Albyς (AlmtwfŶ: 405ç)، tHqyq: mSTfŶ ςbd AlqAdr ςTA ، AlnAŝr: dAr Alktb Alςlmyħ – byrwt.
31- mSAςd AlnĎr llĂŝrAf ςlŶ mqASd Alswr؛ ĂbrAhym bn ςmr bn Hsn AlrbAT bn ςly AlbqAςy(t 885ç)، mktbħ AlmςArf – AlryAD، AlTbςħ: AlÂwlŶ 1408.
32- Almky wAlmdny mn AlĀyAt wAlswr mn Âwl AlqrĀn Alkrym ĂlŶ nhAyħ swrħ AlĂsrA'، drAsħ tÂSylyħ nqdyħ

llswr wAlĀyAt، ςbdAlrzAq Hsyn ÂHmd، dAr Abn ςfAn، AlTbςħ AlÂwlŶ 1420

33- Almky wAlmdny mn AlĀyAt wAlswr mn Âwl swrħ Alkhf ĂlŶ Āxr swrħ AlnAs، d. mHmd AlfAlH، dAr Altdmryħ، jmςyħ tbyAn، AlTbςħ AlÂwlŶ 1433h

34- AlnbÂ AlςĎym nĎrAt jdydħ fy AlqrĀn Alkrym، mHmd bn ςbd Allh drAz(t 1377ç)، AlnAŝr: dAr Alqlm llnŝr wAltwzyς، AlTbςħ : Tbςħ mzydħ wmHqqħ 1426ç.

35- nqĎ AlĂmAm Âby sςyd ςθmAn bn sςyd ςlŶ Almrysy Aljhmy Alςnyd fymA AftrŶ ςlŶ Allh - - mn AltwHyd، Âbw sςyd ςθmAn bn sςyd bn xAld bn sςyd AldArmy AlsjstAny (AlmtwfŶ: 280 ç)، AlmHqq: Âbw ςASm AlŝwAmy AlÂθry، AlnAŝr: Almktbħ AlĂslAmyħ llnŝr wAltwzyς، AlqAhrħ – mSr، AlTbςħ: AlÂwlŶ، 1433 ç - 2012 m